مجلة زانكو للعلوم الإنسانية
ISSN (Print):2218-0222
ISSN (Online): 2412-396X

Vol.28 Issue6 2024
ID No.2346 (PP 105-141)
https://doi.org/10.21271/zjhs.28.6.7

بحث

تعامل صلاح الدين الأيوبي مع غير المسلمين من منظور الإسلام

جعفر نجم الدين علي گوانى / قسم التربية الدينيّة، كلية العلوم الإسلامية، جامعة صلاح الدين – أربيل،أربيل،إقليم كوردستان،العراق

ملخص

هذا البحث يتناول أخلاق صلاح الدّين الأيّوبي الإنساني وتعامله مع غير المسلمين، والّذي أشاد به كتاّب ومؤرّخون في الشّرق والغرب. وينظر إلى هذا الأخلاق من منظور إسلاميّ، هل هو أخلاق شخصيّ أو هو أخلاق إسلاميّ، والغاية أن لا يبقى هذا السّلوك حبيس شخصٍ معيّن، كأنّه لا يمكن أن يتّسم به أحدٌ غيره. والبحثُ فضلاً عن مقدّمة وخاتمة وقائمة المصادر يتكوّن من ثلاثة مباحث، فالمبحث الأوّل تعريفٌ مختصر بصلاح الدّين من بيان (أسرته وولادته، والمراحل الّتي مرّ بها في حياته، والإصلاحات الّتي قام بها، وما قيل عنه). وبيّن المبحث الثّاني أبرز جوانب تعامل صلاح الدّين مع غير المسلمين من بيان (أسباب الحروب، وحريّة التّديّن، والتّعامل مع الأسرى، والمفاوضات والصّلح، وأخلاقيات الحرب، وأخلاقيات صلاح الدّين الشّخصيّة). وركّز المبحث الثّالث والأخير على تعامل صلاح الدّين في ميزان الإسلام من (حريّة التّديّن في الإسلام، والمفاوضات والصّلح في الإسلام، وأخلاقيات الحرب في الإسلام، وعلاقة أخلاق صلاح الدّين في الإسلام). وغرض هذا البحث هو تربية الأبناء والأجيال القادمة بتربية صحيحة تنتج إنسانًا متّزنًا محبًّا للخير، ومتسامحًا مع الغير، ومضحّيًا؛ كي يحلّ السّلم بمعناه الشّامل مكان القلق والحرب والخداع والقتل والكراهيّة والسّرقة.

CORRESPONDEN
جعفر نجم الدين علي
Jaafar.Ali@su.edu.krd

الاستلام 2024/06/12
القبول 2024/08/27
النشر 2024/12/15

الكلمات المفتاحية:
صلاح الدّين،
التّسامح،
الإنسانية،
التعايش،
الأخلاق.

About the Journal
ZANCO Journal of Humanity Sciences (ZJHS) is an international, multi-disciplinary, peer-reviewed, double-blind and open-access journal that enhances research in all fields of basic and applied sciences through the publication of high-quality articles that describe significant and novel works; and advance knowledge in a diversity of scientific fields.
https://zancojournal.su.edu.krd/index.php/JAHS/about

1- المقدّمة

الحمد للّه ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على خير خلقه محمّدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين.

أمّا بعد: فإنّ من أبرز ما اتّصف به صلاح الدّين الأيّوبي هو الخلق الحسن والتّعامل الإنساني مع الأعداء قبل الأصدقاء، وهذا الأخلاق جعل منه رمزاً ومستحقًّا للوصف بالكاريزما والأسطورة في تاريخ الإنسانيّة وتاريخ المسلمين خاصّة، ومن هنا لا بدّ من العمل الجادّ لبناء الإنسان المسلم متخلّقًا بخلق عظيم، يُجْعَلُ من أمثال السّلطان قدوة وأسوة حسنة لانعكاس فضائله فيه وفي الأجيال القادمة الّذين هم في أمسّ الحاجة ليكونوا سلاطين مكارم الأخلاق قبل الكلام الجميل.

1-1 أهميّة البحث: تكمن أهميّة هذا البحث في أنّ الإنسان المعاصر يواجه تحدّياتٍ أخلاقيّةً كبيرةً في تعبّده من الرّياء وحبّ الجاه وجمع المال أيًّا كان مصدرُه...، وفيما بينه وبين النّاس أيضًا من الحقد والكراهية والمنافسة السّيّئة والتعدّي على أموال الغير ونفسه وعرضه ودينه ومقدّساته، ولاسيّما بروز تيّارات متعصّبة في الشّرق والغرب وصعود الأحزاب اليمينيّة المتطرّفة على حساب التّسامح والتّعايش والتّعاون. ومن هنا يحتاج العالم إلى قدواتٍ صالحة من الّذين ضحّوا بأنفسهم وأموالهم في سبيل الغير سواء كان ذاك الغير من دينه وقومه أم لا، فمن الضّروريّ أن تُسْتَبْدَلَ هذه الأفكارُ الهدّامة بإيجاد قدوات طيّبة وإحياء أرواحٍ رفيعةً تتشرّف بالفضائل والمحبّة وكظم الغيظ والتّسامح والعفو والإصلاح بين النّاس والألفة والتّحابب...

1-2 سبب اختيار الموضوع: يعدّ صلاح الدّين من الشّخصيّات الّتي قلّما يوجد له نظيرٌ فيمَن اتّفق عليه أهل الشّرق والغرب، ولاسيّما أخلاقه الشّخصية وتعامله الذّهبي والإنساني مع رعيّته ومع غيره بل وحتّى أعدائه، ويجد القارئ حول هذا في المبحث الأوّل وفقرة: (قالوا عن صلاح الدّين) نقولاتٍ كثيرةً في الإشادة بالسّلطان من قبل المسلمين وغيرهم، وممّن عاصروه وعاشوا معه وحاربوه أيضًا، ويكفي أنّ أصحاب الأديان السّماويّة الثّلاثة كانوا يصلّون في مكانٍ واحدٍ في جامع (عمرو بن العاص) كلٌّ كان ينادي ربّه بدينه وفي وقته، وكلّ هذا تحت ظلّ سيادة السّلطان المتسامح، ولهذا تمّ اختيار هذه الشّخصيّة.

1-3 مشكلة البحث: إنّ السّبب الّذي دعا إلى كتابة هذا البحث هو في ذاته مشكلة للبحث بصورة أخرى يُراد حلّها، بمعنى أنّ مِنْ أكبر المشاكل الّتي يراد في البحث حلّها هو الواقع المرير والّذي كثيراً مّا توجد نصوصٌ دينيّة لحلّها، لكن اتّخاذ تجربة عمليّة مرّت بهذه المرارة وتَجاوزَتْها هي المطلب الأساسي والمشكلة الّتي يراد معالجتها. بمعنى أنّ المسلمين يجدون فيما بين أيديهم نصوصًا ثريّةً تدفع إلى التّعايش وقبول الآخر بل العفو والصّفح، لكن يصعب تطبيقها في الواقع العملي ولا سيّما عندما يجرّب ظلم الطرف الآخر وتجاوزه، ومن هنا يتمكّن القارئ أن يلتمس تجربة متميّزة شهد لها الأعداء قبل الأصدقاء.

1-4 أهداف البحث: يهدف البحثُ إلى الوقوفِ عند مصدر أخلاق السّلطان صلاح الدّين ليقتدي به المسلمون ويعتدوا على المصدر نفسه، ويشربوا من العين نفسها؛ فإذا تمّ تحديد المصدر فيتيسّر وضع لبنات التربيّة على المنوال عينه، وهذه النّقطة جوهريّة ليجتمع في خُلُقِ المسلمين الاعتزازُ بالإسلام والعملُ به ثمّ انعكاسه في سلوكهم فيما بينهم ومع غيرهم، والمسلمون بأمسّ الحاجة إلى هذا التّعامل فيما بينهم. وكذلك بناء السلام بين الأديان وعدم السماح للآخرين باختراق جدار المحبّة والتّعاون والأحسنيّة.

1-5 الدراسات السابقة: لم أقف على أيّة دراسة حول الموضوع في الإطار نفسه، فهناك كتابات كثيرة عن تاريخ حياة السّلطان وأخلاقه، لكن تأصيل هذا الأخلاق بتأصيل شرعيّ إسلاميّ، وتنزيله على الواقع، غير موجود حسب اطّلاعي.

وجدت دراستين تختلفان عن دراستنا، وهما:

أوّلاً: التّسامح الدّيني في مفهوم القيادة الإسلامية (صلاح الدين الأيّوبي أنموذجا) لـ (أ.م.د. قاسم جواد خلف الجيزاني) مجلّة كلية التربية – جامعة واسط – العراق، العدد (36)، الجزء الثّاني/ آب/ 2019م، لكنّ البحث مع كثرة أخطائه اللغوية، بقي في إطار الحديث عن التّسامح دون التطرّق إلى المواقف الكثيرة في بحثنا ودون البحث عن مصدرها ثمّ محاولة تنزيلها في الواقع.

ثانيًا: التّعايش بين المسلمين وغيرهم في فترة السّلطان صلاح الدّين الأيّوبي، لـ د. أحمد بن علي بن عبد العزيز الربعي، مجلّة اللغة العربيّة بإيتاي البارود، جامعة الأزهر، العدد (36)، الإصدار الأوّل... فبراير (1444هـ - 2023م). حاول الباحث الحديث عن التّعايش بين المسلمين وغيرهم وتطوّره لكنّه بقي في إطار وصفيٍّ محدود وعامّ ولم يقم بالمقارنة والموازنة وسبل الاستفادة منه في الواقع، كما لم يتطرّق إلى تفصيل حالات السّلم والحرب والمواطنين غير المسلمين وغيرهم.

1-6 المصادر: اجتمعتْ في هذا البحث مصادرُ قديمة وحديثة، وكذلك مصادر غربيّة وعربيّة وإسلاميّة؛ وهذا التّنوّع بمثابة شهادة تاريخيّة على أخلاق السّلطان، كأنّ الجميع القدماء والمعاصرين، المسلمين وغير المسلمين، الشرقيّين والغربيّين متّفقون في شهادتهم على فضائل صلاح الدّين.

1-7 حدود البحث: يتمحور هذا البحث حول تعامل صلاح الدّين مع غير المسلمين، ولاسيّما فيما أُشِيْدَ به هو من قِبَلِ المسلمين وغيرِهم، من إيجاد الأرضية الخصبة المجرّبة سلوكًا وأخلاقًا للتّعايش والمحبّة والمصالحة والإصلاح، دون التّطرّق إلى الجوانب الأخرى الّتي لا علاقة لها بهذا الغرض.

1-8 منهج البحث: المنهج المتّبع هو المنهج التّحليلي المقارن، فهو تحليليّ؛ لأنّ فيه تحليلا لمزايا السّلطان صلاح الدّين وتدقيقًا في سلوكياته، ومقارنٌ؛ إذ يتمّ فيه المقارنة بين هذه السّلوكيات مع النّصوص الإسلامية والأخلاق النّبويّة العمليّة.

1-9 أسئلة البحث: كيف كان تعامل صلاح الدّين مع غير المسلمين؟ ما مدى صحّة ما ينسب إليه من فضائل التّعامل؟ وأين استمدّ رحمه الله هذا الأخلاق؟ وهل يمكن تطبيق تجربته مرّة أخرى وبالأحرى في تربية الأجيال القادمة بالرّوح نفسها؟

1-10 أهمّ عناصر البحث: يتكوّن هذا البحث من مقدّمة وثلاثة مباحث وخاتمة وقائمة المصادر والمراجع، **فالمبحث الأوّل** تعريفٌ مختصر بصلاح الدّين من بيان (أسرته وولادته، والمراحل الّتي مرّ بها في حياته، والإصلاحات الّتي قام بها، وما قيل عنه) وكلّ ذلك بسرد معلومات تاريخيّة متداولة في أكثر الكتب. وعَرَضَ **المبحث الثّاني** جوانب من تعامل صلاح الدّين مع غير المسلمين من بيان (أسباب الحروب، وحريّة التّديّن، والتّعامل مع الأسرى، والمفاوضات والصّلح، وأخلاقيات الحرب، وأخلاقيات صلاح الدّين الشّخصيّة). وركّز **المبحث الثّالث** والأخير على تعامل صلاح الدّين في ميزان الإسلام من (حريّة التّديّن في الإسلام، والمفاوضات والصّلح في الإسلام، وأخلاقيات الحرب في الإسلام، وعلاقة أخلاق صلاح الدّين في الإسلام). وقدّمت **الخاتمة** عصارة ما أنتجه البحث، ثمّ أعقبت **التّوصيات** طريقة عمليّة لتطبيق هذه النّتائج في بناء الأجيال القادمة.

وما توفيقي إلاّ بالله العليّ العظيم

2- نبذة تعريفيّة حول صلاح الدّين

2- 1 صلاح الدّين: أسرته وولادته

وُلِدَ يوسفُ نجم الدّين الملقّب بصلاح الدّين من أبوين كورديّيَيْنِ، ينتميان إلى أسرة كورديّة، ترجع في أصولها إلى بلدة (دوين) الواقعة عند آخر حدود أذربيجان بالقرب من مدينة (تفليس) في أرمينية، سكنت الأسرة في قلعة تكريت، حينما انتقل إليها شادي مع ابنيه نجم الدّين أيّوب والد صلاح الدّين، وأسد الدّين شيْركوْ عمّه، وكان أغلب سكّان تكريت من الكورد، كان والده أيّوب واليًا بها، وعمّه شيْركوْ كان من المتطوّعين في الجند، وأنّهما غادرا ليلاً تكريتَ إلى الموصل، وفي تلك اللّيلة عام (532هـ - 1138م) ولد يوسف بن شادي، وقد حمله معه إلى الموصل، والتحقا بجيش عماد الدّين زَنْكي، ونزلا معه في حلب، فلمّا فتح بعلبك سنة (532) عهد بولايته إلى نجم الدّين والد صلاح الدّين، وكان عمر الابن آنذاك سنتين، عاش صلاح الدّين طفولته الأولى في بعلبك، وقضى فيها اثنتي عشرة سنة من نشأته حتّى الفتوة (ابن شدّاد 1994، 31) و (الفياض 1437هـ، 7-10) و (الصّلابي 2008، 223).

كان للواقع تأثيره على نشأة صلاح الدّين، فنشأ وعاش في إطارٍ من الحوار والحديث عن وحدة المسلمين ومواجهة التّفرقة والتّشتيت لصفّ المسلمين، كما كان صدّ الصّليبيّين حديثَ القصر الدّائمَ، وكان عمّه أسد الدّين مرافقًا لنور الدّين بعد مقتل والده عماد الدّين، ولمّا استقرّ نور الدّين في دمشق بعد فتحها وإعطاء ولايتها لنجم الدّين أيّوب، كان صلاح الدّين في تردّدٍ بين دمشق وحلب؛ لأنّ أباه كان والي دمشق بينما كان عمّه شيْركوْ نائب زنكي في حلب، وكلّفه نور الدّين بالذّهاب إلى عمّه لاستشارته في قضايا تخصّ الدّولة والضّمانات، وفي سنة (551هـ) خلف صلاح الدّين أخاه الأكبر توران شاه كنائبٍ لعمّه (شيْركوْ) في ديوان الجيش بدمشق، لكنّه تخلّى عن المنصب. وبقي حتّى السّادسة والعشرين من عمره دون عملٍ رسميٍّ تقريبًا.

كان لهذا الاختلاف في بلاط زنكي، وكذلك واقعه في البيت، ودراسته لدى العلماء في العلوم العقليّة والنّقليّة المشهورة آنذاك إضافة إلى علم الأخلاق والسّلوك، تأثيرُه في تكوينه الشّخصي (قهفتان 2005، 176) و (الفياض 1437هـ، 10-11) و (علوان 1983، 20).

2-2 صلاح الدّين مجاهدا

هيّأت الظّروفُ أنسب الأجواء لدخول صلاح الدّين ميدان الجهاد والقتال وهو ابن قائدٍ، والأخبار الّتي تقرع سمعه تدور دائمًا حول الجهاد وردّ الظّلم وضرورة وحدة البلاد المسلمة وتوحيد صفّ المسلمين، وأوّل خطوة خطاها في هذا المجال كانت بالتوجّه إلى

مصر بعدما عيّن نورُ الدّين عمَّه شيْركوّ قائدَ جيشِه إلى مصر، وفتح هذا أفضل فرصة لدخول صلاح الدّين ميدان الجهاد بالاشتراك مع عمّه، توجّه الجيشُ نحوَ مصر وكان صلاحُ الدّين في مقدّمته قائدًا للعسكر.

في الوقت نفسه استنجد الفاطميّون بالفرنجة الصّليبيّين(الفرنجة كانت تطلق على جميع الصليبيّين الغربيّين) فانضمّت قوّتُهم إلى القوّة الفاطميّة في القاهرة، وحاصرت القوّتان مدينة بلبيس في مصر وفيها شيْركوّ وقوّاته وفيهم القائد الحازم الصّبور صلاح الدّين، ولمّا علم الفرنجة بخطة زنكي بطوق إماراتهم في الشّام تركوا مصر محاولة لحماية مدنهم، ومن هنا صالح الفاطميّون أسد الدّين، فعاد هو بجيشه إلى الشّام، وتسلّم صلاح الدّين رئاسة شرطة دمشق ونائبًا لواليها.

في سنة (562هـ) شارك صلاح الدّين مع عمّه أسد الدّين شيْركوّ في حملته الثّانية إلى مصر ضدّ التّحالف المشترك بين الفاطميّين والصّليبيّين الفرنجة، وكان صلاح الدين قائد إحدى فرقتي الجيش ونائب عمّه في الأسكندريّة. ثمّ عادا إلى الشّام، واطمئنّ قلب نور الدّين إلى صلاح الدين أكثر فأكثر ولا سيّما بعد اجتياز أصعب الاختبارات في مصر في مواجهة الفاطميّين والصّليبيّين وتحالفهما، وصَبْرِهِ على الجوع وفي الميدان والثّغور أيضًا.

لمّا استقرّ صلاح الدين في مصر مع عمّه أسد الدّين، حاول شاور الوزير الفاطمي في مصر أن يتآمر لقتل أسد الدّين، فلم ينجح في محاولتين متتاليتين، وأخيرا قُتِلَ بأمر من أسد الدّين وبمباركة من العاضد الخليفة الفاطمي بعد أسره على يد صلاح الدّين مباشرة، واستلم شيْركوّ الوزارةَ مكانَه، ولُقِّبَ بالملك النّاصر، وبعد مضيّ شهرين وخمسة أيّام توفيّ في (22 جمادى الآخرة 564هـ/ 1169/3/23م)، وكانت وفاته بداية عصر تحوّل صلاح الدّين المحارب إلى استلام الوزارة (الدّهان 1960، 54) و(شاكر 2000، 292/6)و (مصطفى 2014، 63-79).

2-3 صلاح الدّين وزيرا

بعدما توفيّ أسدُ الدّين شيْركوّ تولّى صلاح الدّين الأيّوبي الوزارة وهو لم يتجاوز الثّانية والثّلاثين من عمره، وبعد مدّةٍ بدأ صلاح الدّين بتطهير قصر الخلافة الفاطمي إثر محاولة انقلاب داخله بالتّعاون مع الصّليبيّين الفرنجه ضدّ صلاح الدّين، فعزل جميع من تولّوا أمر القصر، واستعمل عليهم قائده الموثوق بهاء الدّين قراقوش، وأفشلَ أيضًا انقلابًا آخر قام به السّودانيّون وهم جيش من الجند السّود جابهم الفاطميّون من غرب أفريقيا، وفي العام نفسه هزم الجيش الصّليبي المحاصِر لمدينة دمياط، وذلك بإرسال جيشٍ لمواجهتهم وطلبٍ من نور الدّين زنكي للإغارة على الصّليبيّين في الشّام، ومن هنا هرب الجيش الصّليبي. وفي عام (1170م) عزل جميع القضاة الشّيعة واستبدلهم بالشّافعيّة، وذلك لأنّهم فرضوا مذهبهم على النّاس، وكان النّاس أتباع المذهب الشّافعي والمالكي بنسبة أقلّ (الدهان 1960، 58) و(قهفتان 2006، 179).

في عام (567هـ - 1171م) قُطِعَت الخطبةُ في صلاة الجمعة للخليفة العاضد الفاطمي، وكان في مرض الموت، فلم يعلم بقطع الخطبة وتوفيّ، أقيمت الخطبةُ باسم الخليفة العبّاسي في بغداد (شاكر 2000، 293/6) (مصطفى 2014، 80-82) (علوان 1983، 29-30).

2-4 صلاح الدّين سلطانًا

في عام (569هـ - 1173م) توفيّ نور الدّين زنكي، وقام ابنه الملك الصالح إسماعيل بالملك بعده وهو ابن إحدى عشرة سنة. حاول ورثة زنكي محاربة صلاح الدّين، لكنّه انتصر عليهم، فصالحوه على تمسّك كلّ منهما على ما بيده، ولمّا رحل عن حلب ووصل إلى حماة، فوصل إليه رسول الخليفة ومعه قرار الخليفة بمنح صفة السّلطان لصلاح الدّين، ولُقِّبَ منذ ذلك اليوم بالسّلطان صلاح الدّين.

رجع السّلطان إلى مصر بعد إفشال خطّة الحشّاشيين من الشيعة الإسماعيليّة النزارية الباطنيّة لاغتياله، كما أفشل خطّة سابقة في مصر، وبعد مهاجمته حلب واستسلام نور الدين للصّلح مع السّلطان، والاطمئان من الرضوخ للصّليبيّين نتيجة خلافاتهم الدّاخليّة. وفي السّنة نفسها تزوّج خاتونَ أرملة نور الدين محمود، ثمّ قام ببناء السّور حول المدن والقلاع... وبعد أن وحّد صفّ المسلمين بالاستيلاء على دياربكر و الجزيرة وحصار الموصل والاستيلاء على سنجار وحلب وجهّز جيشه المشترك من هذه المدن ومدنه السّابقة من مصر والشّام، تحدّى الصّليبيّين، وبعد معارك ضارية وهدن كثيرة استطاع السّلطان حصار الكرك والانتصار في معركة حطّين الفاصلة عام (583هـ/1178م) وفتح كلٍّ من طبريّة وعكا والمجدل ويافا وصيدا وبيروت وعسقلان والقدس، وبعد ذلك تدفّق القادة والملوك من أوروبا نحو الشّام بغية إستعادة القدس لكن دون جدوى، ويأتي تفصيل معارك وهدن بين السّلطان والصّليبيّين في الفصل القادم. وغادر السّلطان القدس ودخل دمشق في السّادس عشر من شوّال سنة (589هـ - 1193م)، وبعد مدّة مرض وكان ينوي الحجّ، لكنّه اشتدّ به الحال ليلة الأربعاء السّابع والعشرين من صفر، فلمّا أذّن الصّبح جاء القاضي الفاضل

فدخل عليه وهو في آخر رمق، فلمّا قرأ القارئ (لا إله إلاّ هو عليه توكّلت) تبسّم صلاح الدين وتهلّل وجهه وأسلم روحه إلى ربّه سبحانه، ومات وكان له من العمر سبع وخمسون سنة (ابن شدّاد 1994، 363) و (مصطفى 2014، 107) و (بول 2023، 261).

2-5 إصلاحات السّلطان

لم تكن جهود السّلطان مقتصرة على الجهاد والفتوحات وإعادة العزّة لأهل الإسلام وإرجاع البلدان المحتلّة، بل قام بمحاذاة لك بإصلاحات كثيرة من التّوسعة في إنشاء المدارس، والعناية بالعلماء والفقهاء وطلبة العلم، وكذلك عنايته بأهل الزّهد والطّرق الصّوفيّة وبناء الخانقاوات لهم، وكذلك اهتمامه بالزّراعة والتّجارة والصّناعات وبناء المستشفيات، هذا إلى جانب الإصلاح الاجتماعي والعمراني والإداري، وتطوير النّظم العسكريّة. وتفاصيلها موجودة في الكتب المطوّلة عن حياته رحمه الله (الصّلابي 2008، 343-364).

2-6 قيل عن صلاح الدّين

لم يحصل اتّفاق على أحد مثلما تمرّ على صلاح الدّين الأيّوبي، هذا الاتّفاق الّذي شمل المسلمين وغير المسلمين. وفي جانب آخر كثيراً مّا يوجد شخصٌ متّفقٌ عليه في عصر دون آخر، أمّا صلاح الدّين فقد اتّفق عليه معاصروه ومن تبعهم توالياً إلى عصرنا الحاضر، وما قيل عنه سلبًا وإن كان نادرًا جدًّا فإنّما يعود إلى التّعصّب المذهبي أو السّياسي أو القبلي. وفيما يأتي عرضٌ لبعض ما قيل فيه مقسّما إلى أقوال غير المسلمين، والمسلمين من معاصريه وعصرنا الحاضر، وإن كانت شهادة غير المسلمين أقوى وأجذب؛ والفضل ما شهد به الأعداء، ولا يعني هذا أنّ القائلين هم أعداء صلاح الدّين لكنّهم نقلوا تلك الرّوايات بعضها من أعداء السّلطان، كما أنّهم غير مسلمين، وهذا في حدّ ذاته فضل للسّلطان والمسلمين جميعًا.

2-6-1 صلاح الدّين في المصادر غير الإسلاميّة

شهادة المؤرّخ الصّليبي وليم الصّوري لها أهميّة كبيرة، لأنّه عاصر صلاح الدّين وشارك في الحملات الصّليبيّة، وولد قبل صلاح الدّين بثمانية أعوام أي سنة (1130م)، ويعدّ واحدًا من أعظم مؤرّخي العصور الوسطى، وكان يعرف بإتقان أربع لغات وهي: (اللاتينية والفرنسيّة واليونانيّة والعربيّة)، وعاش مع الأحداث، وجميع الوثائق المتعلّقة بالحروب الصّليبيّة كانت متاحة له (الصوري 1998، 6).

قال وليم الصّوري في حديثه عن إنسانيّة صلاح الدّين وكونه رحيمًا بالمسيحيّين: "وضع في كلّ شارع فارسين وعشرة من الجند لحراسة البلد، فقاموا بالحفاظ عليها خير قيامٍ وعلى أكمل وجهٍ حتّى أنّني لم أسمع قطّ بأيّ مضرّة أصابت المسيحيّين الّذين خرجوا من البلد... وعهد صلاح الدّين إلى قوّاته بحماية المسيحيّين ليلاً ونهارًا، فلم يجرؤ أحد أن ينالهم بأذًى، كما سلموا من هجمات اللّصوص عليهم" (الصّوري، د، ت، 120-121). وعن تلبية طلب النساء الصليبيات والرّحمة بهنّ بتسريح رجالهنّ من الأزواج والأبناء والآباء، قال: "وكانت له في هذا الموضوع يدٌ بيضاء فتوجّهن بالشّكر للرّبّ على ما أسداه إليهنّ صلاح الدّين من العطف والرّحمة والإحسان" (الصّوري، د.ت، 123).

أمّا المستشرق الإنجليزي روم (لاندو 1977، 126) فبعدما تحدّث عن موقف صلاح الدّين تجاه النّصارى وصفه بـ(القائد الكبير، والسياسي العظيم، الشّهم)، وقال عن فتحه بيت المقدس: "لقد احتلّ صلاح الدّين المدينة احتلالاً نظاميًّا وإنسانيًّا، لم يُؤْذَ فيه أحدٌ من النّصارى، ولم ينهب خلاله أيٌّ من البيوت".

قال المستشرق الألماني كارل (بروكلمان 2001، 358): "والحقّ أنّ حروب صلاح الدّين ضدّ الصّليبيّين قد جعلته من أشهر ملوك الشّرق في أوربا؛ أمّا في الذّاكرة الشّرقيّة فلا يزال اسمه خالدًا إلى اسمَيْ هارون الرّشيد وبيبرس كرمز لحقبة من أسعد حقب التّاريخ وأهنأها. وليس من شكّ في أنّ قلّة ضئيلة من أمراء الإسلام كانت تضارعه من حيث تجرّده عن أيّما نزعة إلى الكسب الشّخصي، ومن حيث انصرافه إلى خدمة دولته ورعاياها، ليس غير. ولم يستطع أعداؤه أنفسهم إلاّ الإقرار له بالشّهامة والنّبل في معاملة الخصم المغلوب. ليس هذا فحسب، فقد كان صلاح الدّين بالإضافة إلى ذلك كلّه نصيراً للعلم".

قال المستشرق الفرنسي غوستاف (لوبون 2012، 341-342): "وتمرّ طرد الصّليبيّين من القدس على يد السّلطان صلاح الدّين الأيّوبي الشّهير... ولم يشأ صلاح الدّين أن يفعل في الصّليبيّين مثل ما فعله الصّليبيّون الأوّلون من ضروب التّوحّش فيُبِيدَ النّصارى على بكرة أبيهم، فقد اكتفى بفرض جزيةٍ طفيفة عليهم مانعًا سلب شيءٍ منهم... وليس من الصّعب أن يتمثّل المرء درجة تأثير تلك الكبائر في صلاح الدّين النّبيل الّذي رحم نصارى القدس ولم يمسّهم بأذًى، والّذي أمدّ (القائد الصّليبي الفرنسي) فليب أوغست

و(القائد الصّليبي الإنجليزي) قلب الأسد ريكاردس بالأزواد والمُرطّبات في أثناء مرضهما، فقد أبصر الهُوّة العميقة بين تفكير الرّجل المتمدّن وعواطفه وتفكير الرّجل المتوحّش ونزواته".

عنون المستشرق الفرنسي ألبير شاندور كتابه عن صلاح الدّين بوصفٍ ملفت للنّظر، وهو كتاب (صلاح الدين الأيّوبي البطل الأنقى في الإسلام)، قال فيه: "إنّ صلاح الدّين كان دائمًا وفيًّا بعهوده، صادقًا بكلامه"، "كان أعداؤه أنفسهم يعترفون له بعظمة النّفس"، "ومطلقًا لم يبلغ أحد من البشر ما بلغه صلاح الدّين من أَلَق المجد بعد انقضاء عهد الرّسول صلّى الله عليه وسلّم وقادة الفتح الأوّلين... وسيبقى صلاح الدّين في التّاريخ الإسلامي إحدى أعظم صوره" (شاندور 1993، 213، 374، 376، 379).

رأى المستشرق الإنجليزي هاملتون.آ.ر. (جب 1996، 151) أنّ "نجاحات صلاح الدّين تمّ إحرازها إلى حدّ كبير بفضل ممارسة الصّفات الّتي ميّزته أشدّ تمييز عن معاصريه العسكريّين. فلا شيء يسترعي الانتباه في المصادر أكثر من مناشدته المتكرّرة من انتقادات ضبّاطه لمبادئ الشّرف، وحسن النّية، وإيمانٍ دينيٍّ راسخ الأركان. وعندما جاء دور المدن والقلاع المسيحيّة فقد استسلمت هذه بتلك السّهولة لسبب رئيسي يعود إلى شهرة صلاح الدّين في المراعاة للعهود الّتي يأخذها على نفسه وفي سماحة النّفس الّتي لا تعرف المكر والحذر". وقال في الكتاب نفسه (ص191): عن التّفسير الحقيقي "للنّجاح الّذي أحرزه صلاح الدّين، فهو بالذّات لم يكن محاربًا ولا حاكمًا بفضل التّدريب أو الميل، لكنّه هو نفسه الّذي ألهم جميع العناصر والقوى الّتي استهدفت وحدة الإسلام في وجه الغزاة وقام بجمعها حوله. ولم يحقّق هذا الأمر عن طريق القدوة الّتي تجلّت في شجاعته وعزمه الّذاتيين – وهما من سجاياه الّتي لا سبيل إلى نكرانها – بقدر ما حققه من خلال نكرانه للذّات وتواضعه وكرمه، ودفاعه المعنوي عن الإسلام ضدّ أعدائه وضدّ من ينتمون إليه في الظّاهر فحسب، على حدّ سواء... كان غاية في البساطة ورجلا نزيهًا لدرجة الشّفافيّة. لقد أوقع أعداءه الداخليّين والخارجّيين، في حيرةٍ من أمره". وقال أيضًا (ص195): "كان المبدأ الأوّل الّذي سار عليه في التّعامل مع الأمراء، سواء كانوا من الأصدقاء أم الأعداء، هو الصّدق في قوله والوفاء المطلق به. حتّى مع الصّليبيّين كانت الهدنة تعني الهدنة. ولا يحوي سجلّه حالةً نَقَضَ فيها العهد معهم".

ذهب ويل جيمس (ديورانت 1998، 15/44-45) إلى تفوّق صلاح الدّين على القادة المسيحيّين بفضل أخلاقه، قال: "إن اعتدال صلاح الدين، وصبره، وعدله قد غلبت بهاء رتشرد، وشجاعته، ومهارته الحربية... كان يسمو على أعدائه في وفائه بوعده سموا جعل المؤرخين المسيحيين يعجبون كيف يخلق الدين الإسلامي "الخاطئ" في ظنهم رجلاً يصل في العظمة إلى هذا الحد... ترك لابنه قبل موته بزمن قليل وصية لا تسمو فوقها أية فلسفة مسيحية".

رأى المستشرق الإنجليزي ستانلي لين (بول 2023، 395) أنّه "إن كان أَخْذُ بيت المقدس هو العملَ الوحيدَ الّذي اشتهر به صلاح الدّين، فهو كافٍ لإثبات أنّه أعظمُ الفاتحين شهامةً وشجاعةً في عصره، بل ربمّا في كلّ العصور".

ذهب المستشرق الإجليزي جيمس (رستون 2002، 14) المذهب نفسه في بيان سرّ نجاح السّلطان عندما قال: "بيد أنّ التّبجيل الّذي حظي به صلاح الدّين، لا يعود لمواهبه العسكريّة وحسب، بل إنّه يعود أيضًا لتواضعه، وإيمانه، وتصوّفه، وتقواه، وضبطه لنفسه". وعنون الفصل العاشر لكتابه بعنوان (الرحمن الرحيم) تحدّث فيه عن عطف صلاح الدّين ورحمته وحنانه تجاه النّصارى (رستون 2002، 129).

ختامًا لمكانة صلاح الدّين في قلوب الغربيّين وتأثّرهم بأخلاقه يوجد في الأدب الغربي مَنْ عَدَّ صلاحَ الدّين مسيحيًّا سرًّا، وظنّ أنّ السّلطان قام بتعميد نفسه حينما حضره الموت؛ وذلك أنّه طلب ماءً، فتناوله بيده اليسرى، وعمل بيمينه علامة الصّليب فوق الماء، ثمّ صبّ الماء على رأسه وجسمه. وروى صليبيّ أسير هذه الحادثة، ولا شكّ أن لا علاقة بينها وبين التّعميد، فما قيل عن التّعميد كان وضوء المسلمين. وهذا يشبه قصّة صليبيّة أخرى تقول أنّه تقلّد السّلطانُ وسام الفروسيّة الصّليبيّة، ومن غير المعقول أنّ مسلمًا تمسّك بدينه في كلّ تصرّفٍ، ولم يدّخر شيئًا لدنياه أن يكون مسيحيًّا ضمنًا، فلو كان كذلك لَمَا التزم بالإسلام من أصغر الأشياء إلى أكبرها، ولما جاهد ضدّ الصّليبيّين، ولما أخرجهم من القدس، ولما منح الغالي والنّفيس في سبيل الإسلام، لكن من الواضح أنّ أخلاق السّلطان أثّر فيهم ودفع ببعضهم أن يذهبوا به أبعد المدى (بول 2023، 559).

2-6-2 صلاح الدّين في المصادر الإسلامية والعربيّة

إشادة المسلمين بأخلاق صلاح الدّين ولاسيّما تجاه الصّليبيّين ليست أقلّ منها لدى الغربيّين، بدءًا من المؤرّخين والكتّاب الّذين عاشوا معه وفي عصره مرورًا بطيلة التّاريخ الإسلامي بعد ذلك إلى يومنا هذا. وإليكم بعض الأمثلة:

يأتي بهاء الدّين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن شدّاد في مقدّمتهم؛ لأنّه عاش مع السّلطان وشارك في أغلب نشاطاته، وكتب ما رآه بأمّ عينه، أو سمعه بأذنيه ممّن شارك، ولد بالموصل، وولاّه صلاح الدّين قضاء العسكر والحكم بالقدس الشّريف في (1188م)، ومن هذا التّاريخ لم يفارق السّلطان (سعداوي 1962، 16).

أشاد ابن شدّاد كثيراً بصلاح الدّين أخلاقِهِ الشّخصيّة وتعاملِه مع غيره، وقال متحدّثًا عن موت السّلطان: "كان يومًا لم يصب الإسلام والمسلمون بمثله، منذ فُقِدَ الخلفاء الرّاشدون، وغشي القلعة والبلد والدّنيا من الوحشة ما لا يعلمه إلاّ الله" (ابن شدّاد 1994، 364).

من المؤرّخين المعاصرين له عزّ الدّين ابن الأثير وهو أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد الشيباني الجزري (ت ٦٣٠هـ)، هذا المؤرّخ وإن كان يؤخذ عليه ما قاله عن صلاح الدّين نتيجة تحيّزه لعائلة زنكي ظانًّا أنّ السّلطان لم يتعامل بشكل صحيح معها، وقد ردّ عليه العلماءُ والكتّابُ والمفكّرون قديمًا وحديثًا، لكنّه مع ذلك لم يستطع العدول عن بيان مناقب صلاح الدّين، وقال: "كَانَ رحمه الله كَرِيمًا، حَلِيمًا، حَسَنَ الْأَخْلَاقِ، مُتَوَاضِعًا، صَبُورًا عَلَى مَا يَكْرَهُ، كَثِيرَ التَّغَافُلِ عَنْ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِ، يَسْمَعُ مِنْ أَحَدِهِمْ مَا يَكْرَهُ وَلَا يُعْلِمُهُ بِذَلِكَ وَلَا يَتَغَيَّرُ عَلَيْهِ" (ابن الأثير 1997، 119/10).

بقفزةٍ إلى عصرنا الحاضر، هناك عددٌ من الكتّاب والمؤرّخين والمفكّرين تحدّثوا صراحةً عن شهامة السّلطان ومواقفه الإنسانيّة، نأخذ نماذج فقط، منها قول المؤرّخ السّوري شاكر (مصطفى 2014، 422): "لقد كان صلاح الدين بتقاه، ببساطة فكره، بكرمه، بوفائه بالعهود حتّى للأعداء، بمثاليّته، نموذجًا خاصًّا من رجال الحرب والسّياسة. ومع أنّه كان يدرك أنّ طرائقه في الحكم وفي أهداف الحرب لم تكن تتّفق مع واقع عصره، فقد جاهد طويلاً لإقرارها كمبادئ لدولته. لم تكن مشكلته سياسيّة فحسب، ولكنّها كانت خلقيّة أيضًا، ومع ذلك فقد استطاع في النّهاية ورغم كلّ المعوّقات أن يحقّق بعضًا من الأهداف الّتي وضعها لنفسه، وكسب بذلك احترام الجميع من أعداء وأصدقاء، بأنّه في التّاريخ الإسلامي أحد رموز الجهاد البارزة".

قال محمّد رجب (البيّومي 1998، 173): "طُبِعَ صلاح الدّين على الحلم، وقد تجلّى ذلك في مواقف كثيرة شملتْ ماضي حياته، ولكنَّ ما ظهر من حلمه بعد موقعة حطين كان مصدر الإعجاب من أعدائه قبل خصومه، وبهذه الرّوائع المدهشة سار له ذكرٌ حميدٌ بين كتّاب أوروبا، حيث جعلوا يوازنون بين نبله المشهود وحِلمه المتكرّر، وما يقترفه مناوئوه ممّن يتزيّون بأزياء الملك، فلا يجدون أدنى شبهٍ بين ملكٍ رحيمٍ، وانتهازيّ طامع".

قال محمّد ناصر (علوان 1983، 75): "إنّ السّلطان صلاح الدّين قد تجاوز بند المعاهدة (مع الصّليبيّين) وعامل الصّليبيّين معاملة عطف ورحمةٍ وإحسانٍ، ليعطي للبغاة المعتدين، والملوك المستبدّين الظّالمين والصّليبيّة الحاقدة على الإسلام والمسلمين النّموذج الطّيّب والقدوة الصّالحة في السّماحة والعدل والعفو عند المقدرة؛ ليعرف أولئك جميعًا أنّ الإسلام دين الرّحمة والإنسانيّة، لم يظهر ليشهر سيفًا على مغلوبٍ، أو ينتقم من مستأمنٍ، أو يريق الدّم البشريّ ظلمًا وعدوانًا".

وصف قدري (قلعجي 1992، 316) صلاح الدّين بأنّه كان: "رجل سلم وبناء ومحبّة، وليس رجل حرب وهدمٍ وضغينة، وبعد كلّ معركة كان يعي أكثر فأكثر وحشيّة الحرب وغباءها".

3- جوانب من تعامل صلاح الدّين مع غير المسلمين

3 -1 أسباب دوام الحروب بين المسلمين والصليبيين

ليس الحديث في الأسباب الّتي أدّت إلى بداية القتال بين المسلمين والصّليبيّين سواء في القدس أو غيرها من المدن والأقاليم، فهذا مجال آخر كتبت فيه مقالات وألّفت فيه كتب وموسوعات، ويتجاوز إطار البحث الكامن في الأسباب الّتي أدّت إلى تجدّد القتال بين المعسكرين، ممّا جعل من صلاح الدّين شخصيّة متميّزة يشار إلى إنسانيّته وقدوته. وتتلخّص تلك الأسباب فيما يأتي:

3-1-1 تأمين طريق الحجّ والتّجارة

كانت المحاولات دائما نحو الإبقاء على أمان الطرق للتّجارة؛ لأنّ حريّة التّجارة كانت شرطًا من الشّروط المهمّة للسّلطان، ولا سيّما أنّ الطّريق بين الشّام ومصر كانت محفوفة بالمخاطر، وتحتاج حراستها إلى جيش من الجند (جب 1996، 141)، وكذلك أمان طريق قوافل حجّاج الطّرفين، سواء في ذلك الحجّاج المسلمون نحو الحرمين الشّريفين أو النّصارى نحو القدس وأماكنهم المقدّسة، إذ راجت التّجارة وازدهرت، وانسجم الفنّانون والصّنّاع المسيحيّون وتناغموا مع أقرانهم المسلمين واليهود. وطوال القرن السّابع والثّامن والتّاسع استمرّ تدفّق الحجّاج النّصارى من الغرب إلى أماكنهم المقدّسة في الشّام دون أيّ عائق (لاندو 1977، 119-120)، وبهذا التزم المسلمون بضمان سلامة النّصارى طوال حكم المسلمين باستثناء بعض الوقائع النّادرة الّتي أملتها

ظروف وملابسات معيّنة. (هونكه 1996، 20-21). خصوصا عند حكم الأتراك، وبقيت تلك الوقائع في إطار الفدية والضّغط النّفسي كي لا يسبّبوا الضّجيج كما فعلوه سابقًا، ولم تصل إلى منعهم من الحج أو التسبّب بقتلهم أو سجنهم. (لوبون 2012، 233).

حاول صلاح الدّين التمسّك بهذا العهد وهذا الواقع الأمين بغية إتاحة فرصة الحجّ لمآت آلاف المسلمين والمسيحيّين والتمتّع بأداء واجبهم الدّيني بأمان وحرّيّة ودونما خوف وقلق، وانعقدت في ذلك معاهدات عدّة، ولم يحدث أن نكث صلاح الدّين وعوده في ذلك؛ لأنّه كان ذا مبدإ الصّدق في القول والوفاء المطلق به في تعامل الوعود والهدن مع الأعداء أو الأصدقاء، وبقي سجلّه خاليًا من نقض العهد مع الصّليبيّين. (جب 1996، 195)و (محمود 2010، 294).

وأحيانا كان الصّليبيّون يخدعون المسلمين عن طريق تغيير مساراتهم الحربيّة إلى التّجاريّة هروبا من الاصطدام. ولهذا لمّا أراد كونراد دي مونفرا (أحد قادة الفرنجة الصّليبيّين الموصوف بالشّجاعة واليقظة) الذّهابَ إلى فلسطين، اصطحب مع بعض فرسانه وهو لا يعرف شيئا عن سورية، ومعركة حطّين وفقدان الفرنجة القدس قبل ثمانيّة أيّام، ورأى في البحر سفينة صغيرة للمسلمين، فأرسى في الميناء. وأخفى الفرنجيّ فرسانه، وأخبر المسلمين قَسَمًا أنّه ينقل بضائع التّجارة، وأنّه على يقين بأنّ صلاح الدّين لا يعيق تجارة الأوربيين مع رعاياه، فطلب من (الملك الأفضل) حاكم عكا ترخيصًا لبضائعه ومركبه ورجاله، لكن قبل الموافقة هبت ريح فاغتنمها متّجهًا إلى مدينة صور مركز الصّليبيّين. (شاندور 1993، 218).

كان من غايات صلاح الدّين توسيعُ دائرة التّجارة وفسح مجال الحجّ، وهو ما آل إليه الأمر بعد انتصاراته واستقرار الأمور وهزيمة الصّليبيّين، وكما كتب صلاح الدّين عام (1183م) أي عشر سنوات قبل وفاته: "كان أهالي جنوة وبيزة والبندقية يجلبون إلى مصر منتجات مختارة من الغرب، وخاصّة الأسلحة والمعدّات الحربيّة"، وفي المقابل كان التّجّار المسيحيّون يُزَوّدون بالشّبّ المجلوب من مناطق أفريقيا. والغريب أنّ هذه التّجارة جوبهت بالنّقد من قبل كلٍّ من بغداد ومقرّرات مجاميع الكنيسة (كاهن 1995، 188).

لم ينحصر هذا السّماح بالتّجارة فقط، بل قدّم صلاح الدّين ضمانات حريّة التنقّل للمسيحيين من جميع بقاع الأرض إلى الأراضي المقدّسة لأداء فريضة الحجّ بمساعدة حجّاجهم وأمانهم على أنفسهم وأموالهم. وعهد بكنيسة القيامة إلى الأساقفة الرّوم، وسمح للبيزنطيين بحرّيّة دخول الأراضي المقدّسة دونما خوف أو مضايقة (ديورانت 1998، 38/15) و(الصّلابي 2008، 541).

القول بأنّ صلاح الدّين كان يؤيّد حريّة التّنقّل لحجّاج الطّرفين تقزيم لدوره الشّامخ؛ لأنّه تَجَاوَزَ حدّ التّأييد إلى الفرح والحراسة والحماية وتسهيل المتطلّبات، ولهذا لمّا تمّ الصّلح بين الطّرفين عام (1193م) وصل أوّل وفد من الحجّاج النصرانيّين إلى مشارف القدس، وكانوا خائفين جدّا بعد تاريخ طويل من الحرب وإراقة الدّماء والنّهب والسّلب، وكان في مقدّمة القافلة فريق الاستطلاع، فناموا دون إنذار القادة المسلمين باقترابهم. فحاصرهم ألفا جنديّ مسلم في لحظة مخيفة ومتوتّرة. وعلم صلاح الدّين بالأمر ولا سيّما اطّلع على نوايا بعض المسلمين بقتل القافلة ثأرا لضحاياهم، فحاول صلاح الدين تهدئة الأمور مباشرة قائلا: "ستكون وصمة عار وخزيٍ في جبيننا إن نقض العهد الّذي أبرم بيننا وبين ملك إنكلترا بفعلنا. وسيصبح بعد ذلك صدق المسلمين محلّ ريبة إلى الأبد". فسمح لهم بالدّخول آمنين (رستون 2002، 449-451).

الغريب أنّ هذا التّشجيع الصّلاحي وُوجِهَ بوضع حدّ أمام تدفّق الحجّاج المسيحيين من قبل ريتشارد قائد النّصارى آنذاك بل ومنع الفرنسيّين، حينما رسم لما بعد مغادرته بفرض تأشيرة رسميّة لزيارة القدس تسلّم في عكّا وتطلّع عليها السّلطات الإسلاميّة. لكنّ صلاح الدّين لم يعطِ اعتبارا لذلك، بل أمر أن يأتي الحجّاج إلى حجّهم مباشرة وفورا محترمين مسرورين، ثمّ أقام مراكز لجيشه على طول الطّريق المؤدّية إلى القدس لتوفير الأمن والسّلامة، وكان يخرج لاستقبال الحجّاج النّصارى، وشجّعهم على تقبيل صليب سيّدهم الحقيقي الّذي كان بحوزة المسلمين بعد معركة حطّين، كما شجّعهم على زيارة جبل صهيون وزيارة مكان الجلجلة والحديقة وهي أماكن مقدّسة عند المسيحيّين. واستضافهم إلى مائدته وأجرى معهم حديثًا وديًّا وأكرم ضيافتهم. وفي رسالةٍ بعث بها إلى السّلطات المسيحيّة في عكّا أكّد احترامه لهم بقوله: "عندنا هنا أناس قد أتوا من بعيد لزيارة الأماكن المقدّسة. وإنّ شرعنا ينهانا عن منعهم من ذلك" (رستون 2002، 452).

على العكس تماما، كان المعسكر المقابل تَعَوَّدَ على نقض العهود وتعريض حجّاج المسلمين وتجّارهم للخطر بل والأسر والاقتتال، ومن خلال هذه المقارنة يتبيّن مدى إنسانيّة وصدق صلاح الدّين، وعصبيّة الطّرف المقابل وهمجيّته.

كان في الكرك حصن منيع للصّليبيّين، كانوا يضايقون التّجّار والحجّاج، فحاول صلاح الدّين الاستيلاء عليه مرّتين (1173م و 1184م) تأمينا لطريق الحجّ والتّجارة دون أن يحقّق هدفه (ابن شدّاد 1994، 108)و (شاكر 2000، 307/6). ثمّ تجاوزت أطماعُ صاحب الكرك الصّليبي أرنولد دي شاتيون إلى أكثر الأعمال إثارة وشذوذًا في سنتي (1182-1183م) وذلك برسم خطّة لمهاجمة

مكّة والمدينة والاستيلاء على الحرمين الشّريفين أقدس أماكن المسلمين، فيبدأ بهدم الكعبة قبلة المسلمين وقلع الحجر الأسود من أساسه، ثمّ إخراج النّبيّ محمّد (صلّى الله عليه وسلّم) الّذي سمّاه (سائق الجمل).

أثناء سيره بحرًا إلى هدفه، قام بنهب وتدمير جميع قرى المسلمين على الشّاطئين المصري والحجازي، وأحرق مدينَتَيْ تبوك وتيماء والّتي اعتبرها السّلطان قاعة الانتظار بالنسّبة إلى المدينة، ثمّ توجّه نحو المدينة (ديورانت 1998، 35/15). وأثار بذلك غضب العالم الإسلامي ورعبهم واكتفوا بردّ فعلٍ بطيئ، لكنّ أخًا لصلاح الدّين وهو الملك العادل تحرّك على رأس أتباعه من البدو حيث أدركوا المغيرين الغادرين وهزموهم، وأسروا منهم من أسروا، وهرب زعيمهم (أبو شامة 2003، 214-215) و (الشامي 1991، 123).

في عام (1186م) رجعتْ من مصر إلى دمشق قافلةٌ تجاريّة للمسلمين على الطّريق القديمة عبر شرق الأردن، وقام رينو دي شاتيون بالاستيلاء عليها خلال مروروها فوق أرضه في الكرك، رافضا بذلك العهد المبرم بين المسلمين والصّليبيّين، وتخطّى جميع حدود الاستفزاز والفظاظة، وذلك عندما أسر أصحاب القافلة، واحتجّ التّجار الأغنياء على هذا العمل بذريعة عقد صلح بين المسلمين والصّليبيّين أو كما أطلق عليهم (الفرنجة)، لكنّ الرّجل بدل الإذعان للمعاهدة أجابهم بقوله: "لينقذكم الآن محمّد" (بدليسي 2006، 99) و (أبوحديد 2018، 77).

حاول صلاح الدّين تدارك القضيّة والإبقاء على أمان الطّريق، فبعث فورًا رسالة زجرٍ إلى القائد الصّليبيّ وأمره بإطلاق سراح الأسرى وإعادة أموالهم، وذكّره بالعهد المبرم بينهما قائلا: (أين العهود والمواثيق، أعد ما أخذته!). وكان الجوابُ رفضَ الاقتراح، وأخبر صلاح الدّين أنّه سيحتفظ بهم حتّى يخرج ذهبهم من أبدانهم عَرَقًا. ومع هذا الرّدّ القاسي المخيّب، فلم يتوان صلاح الدّين بالطّلب من ملك المسيحيّين بالقدس إصلاح الوضع إلى مجراه السّلمي والأمين؛ إذ كان بينهما معاهدة صلح انعقدت قبل سنتين، فجهد ملك القدس تنحية شاتيون من فعلته وتعويض الخسائر والاعتذار، لكنّه رفض التّنازل إلى الملك، وكان الجواب أنّه من جهته لم يوقّع على الهدنة والصّلح قائلا: (كما هو سيّد بلاده، فكذلك أنا سيّد بلادي. ولا عهد بيني وبين العرب). وأعطت هذه الخباثة صلاح الدّين حقّ الرّدّ، فأعلم خليفةَ بغداد بالأمر، فتلقّى منه أمر إعلان الجهاد في جميع ديار المسلمين، واعتبار أراضي الفرنجة دار حرب (قلعجي 1992، 306) و (أكبر 2009، 125).

في العام التّالي أي (1187م) تكرّر الأمر عندما عادت قافلة لحجّاج الشّام من مكّة والمدينة إلى ديارها، واقتربت من الكرك، فراقبهم شاتيون وأتباعه من أعالي حصنه دون النّيل منها؛ لأنّها كانت محروسة بفرقة عسكريّة قويّة، لكن لو تأرجحت القوّة بجانبه لما نجت منه القافلة (قلعجي 1992، 309).

كان تأمين طريق الحجّ الشّغلَ الشّاغلَ والدّائمَ لدى صلاح الدّين، ولهذا نجده في أضعف حالاته قدّم استعداده للتّنازل عن جزء كبير من مملكته تحصيلا لسلام شامل ودائم تعاد من خلاله كلّ المنطقة الجنوبيّة من فلسطين إلى المملكة اللاتينية، واستثنى قلعَتَي الكرك والشّوبك الواقعتين على طريق الحج (رستون 2002، 267).

هكذا كان غرض صلاح الدّين عام (1188م) موجّهًا نحو فتح طريق التّجارة والحجّ، وذلك عندما تغلّب على الصّليبيّين وسقطت قلعة الكرك، فبهذا الهجوم أعيدت الاتّصالات بين مصر والشّام -هذا من النّاحية التّجاريّة-، وبين دمشق ومكّة طريق الحجّ من الجانب الدّيني، وكانوا مرغمين قبل ذلك على القيام بدورات كبرى على طرق الصّحراء في الأردن تجنّبا لدفع الفديات والتّعرّض للمضايقات. وممّا يدلّ على هذا الهدف أنّ جميع أهل دمشق ممّن لم يتمكّنوا من أداء فريضة الحجّ استعدّوا للذّهاب إلى مكّة وشهد دمشق أكبر قافلة سائرة إلى مكّة لأداء الحجّ (الشامي 1991، 101).

3-1-2 نقض العهود

ما قيل في الفقرة السّابقة كثيرًا مّا نتج عن نقض العهود، أي بعد إبرام عهد الصّلح والأمان بين المسلمين والنّصارى كان من النّصارى من ينقضون العهد مع سنح أدنى فرصة للانتقام وضرب المسلمين، فتأتي بعد ذلك الحرب ويتجدّد القتال. وخير مثالٍ على ذلك ما سبق من نقض هدنة ملك القدس على يد أحد قادته وهو أرنولد دي شاتيون؛ لأنّ مهاجمة القافلة كانت بمثابة الضّرب بالهدنة نحو الحائط (قلعجي 1992، 304).

أمّا صلاح الدّين فقد بقي على عهده ورأى -كما سبق- أنّ نقض العهد بمثابة وصمة عارٍ وخزيٍ في جبين المسلمين وسيصبحون محلّ ريبة إلى الأبد. والدّليل على تمسّكه بعهده هو ثقته بأعدائه، أي بما أنّ صلاح الدّين لا يحنث عهده إذا عاهده ولو على حساب روحه، فيثق بمن يضع ثقته فيهم، ومن هذا المنطلق كثيرا ما يعرّض جيشه للخطر بالسّماح له بالمضيّ قُدُمًا في وسط عسكر الصّليبيّين. فبعد إغارة شاتيون على القافلة، وهو دليل على نقض الهدنة المتّفق عليها بين الطّرفين، توجّه السّلطان إلى ريموند

وهو قائد صليبي آخر، له عهدٌ مع صلاح الدّين ليس للأمان فقط بل الدّفاع عنه إذا غُدِرَ أحدهما من طرفٍ ثالثٍ، فطلب منه صلاح الدّين السّماح لجيش المسلمين بالعبور عبر أراضي القائد الصّليبي كي يستطلع الواقع ثمّ ينتقم من شاتيون، وقَبِلَ ريموند الطّلب بحدود المغادرة قبل مغيب الشّمس وفي اليوم نفسه، وأن يتعهّد المسلمون بعدم مهاجمة مدن الإقطاعيّة أو قراها، وأن يرجعوا على نفس المنوال.

ذهب جيش المسلمين الاستطلاعي بهدوء وبدون إضرار كما وعد صلاح الدّين، لكنّ فرسان الهيكل المتحمّسين للقتال عدّوا ذلك اختراقا لحرمة الأراضي المقدّسة. ولمّا استعدّ المسلمون للعودة فاندفع إليهم الصّليبيّون ووصل عددهم من الفرسان إلى (130)، ومن المشاة ما بين (300) إلى (400)، وهاجموهم، ونقضوا بذلك العهد، والنتّيجة كانت لصالح المسلمين وخيبة الصّليبيّين، ورجع المسلمون ومرّوا بأراضي ريموند وقت غروب الشّمس بهدوء كما وعدوا دون مسّ مدينة أو قرية، حاملين رؤوس الفرسان على رماحهم. توجد قصّتان في هذه الحادثة، قصّة من بقوا على عهدهم من المسلمين والصّليبيّين وقصّة من نكثوا العهد مرّتين (بول 2023، 176).

كان صلاح الدّين الأيّوبي رحمه الله يغضب كثيرا من نقض العهود انطلاقا من إيمانه بأنّ الالتزام بالعهد أخلاق وشرف ودين وأنّ نقضها خيانة وخساسة، لذا كان ردّ فعله القاسي وهو عدم الصّفح عن ناقضي العهود ينبع من هذا الحسّ والشّعور (جب 1996، 195). ينجلي ذلك من موقفه عندما وقع اثنان من كبار قادة الصّليبيّين في الأسر وهما الملك غي دي لوزينيان وأرنولد دي شاتيون، وجلبا إلى حضرة السّلطان، وهما متعبان، ممزّقا الثّياب، فلمّا رآهما فأكرم الملكَ، لكنّه لم يسمح للملك أن يعطي بقيّة مائه إلى شاتيون، إذ السّماح بذلك إيحاء بإعطاء الأمان له، وهو ما لم يقبله صلاح الدّين؛ لأنّ سجّله أسود بالغدر والنّقض واللاأخلاقيّة، فهو الّذي أسر القافلة الغنيّة على طريق الحجّ، وقتل التّجّار، ونهب أموالهم، وحاول الإغارة على مكّة والمدينة، ونقض عدّة معاهدات، وصرّح صلاحُ الدّين بذلك حينما التفت إليه قائلا: "اشرب، فلن تشرب ثانية!" وأردف: "كم من مرّة أقسمتَ على الوفاء ثمّ نقضتَ العهد؟ وكم من مرّةٍ وقّعتَ اتّفاقا لم تنفّذه؟" فأجاب شاتيون باديا إصراره على موقفه، وقال: "هكذا تفعل الملوك دائمًا، وما فعلت أكثر ممّا فعلوا!. وتابع صلاح الدّين: "لو أنّك أسرتني كما أسرتك، يا أمير شاتيون، ماذا كنت لتفعل؟ وأجاب بصراحة: لو أعانني الله وأسرتك، لسارعت لقطع رأسك! وقال السّلطان ساخطا: خنزير! أنت في يدي، وتجيبني بهذه الصفاقة؟!

عندما عُرِضَ على السّلطان مرّة ثانية، ذكّره بما قاله عند أسر القافلة وطلب منهم متهكّما ("لينقذكم الآن محمّد)، فقال صلاح الدّين: "ها أنا أنتصر لمحمّد صلّى الله عليه وسلّم"، ثمّ أتاح له فرصة أخيرة بدخول الإسلام، فأبي الرّجل، وأباح دمه بيد صلاح الدّين، وأعتق الملك غي، فطمأنه السّلطان، وقال: "إنّ هذا تجاوز حدّه فجرى عليه ما جرى"، وتناقشا عندما قال الملك: "لم تجر عادةُ الملوك أن يقتلوا الملوك"، فكرّر صلاح الدّين قولته: "ما كان شاتيون ملكًا، وقد تجاوز الحدّ" (ابن شدّاد 1994، 124) و (أكبر 2009، 126).

كان لصلاح الدّين تجربة مريرة مع نقض المواثيق وخيانة العهود لدى الصّليبيّين، وصار سببًا دائمًا للتّوتّرات واستئناف الاقتتال، يظهر هذا جليًّا في قول السّلطان حينما كان في مفاوضات مع الملك الإنجليزي ريتشارد وقال لمبعوثه: "إن كان الصّلح فعلى الجميع، وإن لم يكن صلح فلا يكون من حديث الأسارى شيء". وبعد مغادرة المبعوث، التفت السّلطان إلى مستشاره وقال: "متى صالحناهم لم تؤمن غائلتهم". يتبيّن من هذا مدى الألم الّذي تجرّعه السّلطان من خيانة الصّليبيّين (رستون 2002، 347).

كان الحقّ مع السّلطان في عدم ثقته بالصّليبيّين، وهو عاش معهم، صالحهم، تعارك معهم، فلم ير منهم صدق النّوايا أبدا حتّى في أحلك الأوقات، وكمثالٍ على هذا، كان الملك العادل شقيق صلاحّ الدّين في اتّصال مع ريتشارد وهو في طريقه إلى القدس، وبعث رسالةً متفائلة إلى السّلطان، قال: "نوافق على تقسيم البلاد، وليحتفظ كلّ جانبٍ بما لديه وإن كان لجهة أكثر من نصف، فما هو نصيبها العادل؟ يجب أن تعطي الجانب الآخر تنازلاً مناسبًا. ستكون لنا المدينة المقدّسة، وتحتفظون لكم بالسّهل السّاحلي". وبعد أسبوعين أبدى ريتشارد استعداده لتسليم قلعة القدس إلى المسلمين علاوةً على قبّة الصّخرة ذاتها والمسجد الأقصى فيما يقسم ما تبقى من المدينة المقدّسة إلى نصفين بالتّساوي. وتخصص البلدات الواقعة في محيط القدس بين الجانبين بالتّساوي.

اللافت أنّ هذه المفاوضات وإن جنحت إلى صالح الصّليبيّين، ورضي قادة صلاح الدّين بذلك، فرسالة خاصّة من الجنوب فاجأت السّلطان، ومفادها أنّ الصّليبيّين خرجوا من عسقلان ووصلوا إلى الدّاروم القلعة الأبعد في الجنوب، واعتدوا على المسلمين وقتلوا عدّةً منهم، ونهبوا أموالهم، فانزعج السّلطان، وقد تبيّن أنّ الصّليبيّين ومنهم ريتشارد لا يفكّر بالتّخلّي عن المعركة (رستون 2002، 381).

مرّةً أخرى، عندما اقترب السّلطان من الاستيلاء على (يافا)، قدّم صاحب (يافا) عرضا بشروط متّفق عليها بين الطّرفين من تقديم السّلطان ضمانات للصّليبيّين هي عبارة عن رهائن مهمّين كجزءٍ من اتّفاقيّة السّلام، وقبلها السّلطان دون تردّد وتأخير، وخرجت الرّهائن. وأثناء سوق فدية الصّليبيّين، وقد قدّم خمسون فارسًا قطعهم الذّهبيّة وأخلي سبيلهم، لكن مع سماعهم بمجيء قوّة مساندة لهم، توقّفت فجأة عمليّة الاستسلام، وأغلق الباب، وانسحب الحماة بدروعهم إلى داخل برج القلعة. وانتهى الصّلح واستلم السّلطان زمام الوضع العسكري (رستون 2002، 417-418).

خَرْقُ الهدنة كان ديدنَ الصّليبيّين الدّائم، وكانوا يعتدون أبدًا على تخوم المناطق الخاضعة للسّلطان في سوريا (بروكلمان 2001، 355). فخرق الفرنجة الهدنة سنة (1177م) وهاجموا حماه، وفشلوا في هجومهم واقتيدوا أسرى إلى السّلطان. وفي الوقت نفسه حصل انتهاك آخر أمر بلدوين(Baudouin) أحد القادة الصّليبيّين -بإيعاز من الفرسان الهيكليّين- ببناء قلعة محصّنة عند (مخاضة الأحزان) في تشرين الأوّل (جب 1996، 129).

من المشكلات العويصة الّتي تسبّبت بتوتّرات دائمة بين المسلمين والصّليبيّين هو عدم خضوع جميع القادة الصّليبيّين لأوامر رأس واحد متّفق عليه بين الجميع، فكثيرا مّا يقوم السّلطان بهدنة مع طرف صليبيّ فيخرقها آخر لادّعائه عدم انحنائه لأوامر أحدٍ، ولمّا وافق السّلطان عام (1170م) على عقد هدنة مع بلدوين في البرّ والبحر على السّواء، فامتنع ريمون صاحب طرابلس إشراكه كطرف موافق للهدنة، فلم يرجع إلى رشده إلّا بعد سلسلة من الغارات (جب 1996، 141).

3-2 حرّيّة التّديّن

في الحديث عن تأمين طريق الحجّ، تبيّن أنّ إحدى مميّزات صلاح الدّين والّتي بها نال الشّهرة لدى العالَمَيْنِ الإسلامي والغربي(المسيحي) هي تأمين حرّيّة العبادة للجميع، فأمّن الحجّ ذا صلة إيمانيّة للمسيحيّين حيث كانوا يأتون من الغرب والشّرق إلى الشّام عابرين صعاب الجبال ووطأة السهول ومغامرة البحار. كذلك للمسلمين، فالحجّ في الإسلام هو الرّكن الخامس من أركان الإسلام الّذي يجب على كلّ من استطاع إليه سبيلاً.

أتاح السّلطان حرّيّة العبادة وممارسة الشّعائر الدّينيّة لجميع الطوائف (المسلمين، والنّصارى، واليهود)، والمميّز أنّ الحرّيّة الممنوحة لدى السّلطان جائت بعد الحكم الجائر للصّليبيّين، فالقدس اتّسم دائمًا بحريّة التّديّن لجميع الطّوائف منذ فتحها على يد الخليفة الثّاني عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، وباستثناء عهد الحاكم بأمر الله الفاطمي القصير، تواجد المسلمون واليهود والنّصارى جنبًا إلى جنبٍ داخل أسوارها، بل جعل المسلمون من القدس فضاءً محايدًا، فقد كانت الطّوائف الثّلاثة قد عقدت نوعًا من السّلام الرّبّاني. وكان الحجّاج يسعهم التّعبّدُ في أماكنهم المقدّسة، كما أتيحت الفرصة للباحثين عن العلم للاقتراب من الله أكثر من خلال الدّراسة، وأحيانًا وصلت التّحقيقات تطوّرًا نوعًا من الأكاديميّة غير الرّسميّة، كان أصحاب الدّيانات المختلفة يتناقشون الموضوعات الإيمانيّة، كلٌّ في وجهة نظر دينه. لكنّ الصّليبيّين لمّا استولوا على القدس فدمّروا هذا الانسجام، ثمّ أعاد السّلطان صلاح الدّين الأمر إلى نصابه (هويتكروفت 2013، 311 و323-324).

نتيجةً للمساحة الّتي أتاحها السّلطان للجميع كي يؤدّوا عباداتهم بحرّيّة ودونما إزعاج، قام النّصارى المحلّيّون بتديّنهم وإقامة شعائرهم، ومعهم في ذلك بعض الصّليبيّين الّذين انسجموا مع ثقافة الشّرق وامتزجوا بأهله واستفادوا بذلك من مكاسب المسلمين وشاركوا معهم في حمل السّلاح، وأدّى هذا إلى انزعاج البابا إسكندر الثالث بل من أكثر ما أزعجه والّذي تولّى السلطة البابويّة للكاثوليك في روما من (1159-1181م). ولذلك قام عام (1179م) بإصدار مرسوم كنسي هدّد فيه بالحرم الكنسي، وقال فيه: "لقد وصلت درجة الشّرّ والانحطاط لدى بعض النّاس إلى حدودٍ غير معقولة. فبينما يَنالُهُم المجد لانتسابهم إلى المسيح والمسيحيّين، إذا بهم يحملون السّلاح إلى العرب. وعندما يفعلون ذلك بالسّلاح والعُدَد الأخرى الّتي تستخدم ضدّ المسيحيّين يعتبرونهم أندادا لهم، بل أعظم منهم شراهة وخبثا. ولذلك فإنّنا نأمر بإخراج هؤلاء من سرّ الاعتراف، ونرى أنّه بسبب شرورهم ينبغي أن يُحرَموا من الكنيسة أو يُخْرَجوا منها" (رستون 2002، 104).

اللافت هنا أنّ المسلمين استخدموا مصطلح (الصّليبي) بدل (المسيحي) إشارة أنّ التّميز بينهما، فالأوّل يطلق على الغزاة الأوروبيين الّذين جاؤوا من الغرب وأغاروا على العالم الإسلامي وعاثوا في الأرض الفساد وخرّبوا العباد والبلاد، بينما الثّاني يطلق على أتباع الديانة المسيحيّة، فكانوا يفرّقون بين المسيحيّة والصّليبيّة، بل بين مسيحيّة الشّرق ومسيحيّة الغرب. ومن المسلمين من أغفل مصطلح (الصّليبيّ) أيضًا؛ كي لا يختلط الأمر على النّاس، وذهبوا إلى الاعتماد على المصطلح الجغرافي وهو (الفرنجة). والواقع المذكور في الفقرة السابقة شاهد على أنّ الغاية لم تكن محو المسيحيّة أو تهجير أهلها أو حرمانهم من العبادة (الدهان 1960، 23).

فيما يخصّ اليهود فإنّهم كانوا مقبولين اجتماعيا وسياسيا، ويتمتّعون بالتّقدير في حدود مملكة صلاح الدّين، وبعد تحرير القدس بقي السّلطان على دينه وأخلاقه بالرّغبة في العودة بمدينة القدس إلى أوضاعها السّابقة من تكوين المجتمع المتنوّع. وقد استجلب قبل ذلك عماد الدين زنكي قرابة ثلاثمائة عائلة يهوديّة من الرّها إلى القدس عام (1144م) (رستون 2002، 142-144). وبعد استرجاع القدس دعا صلاح الدّين اليهود للعودة إلى القدس والّتي حرّمها الصّليبيّون عليهم بشكل شبه كلّي (أرمسترونج 1998، 489). وعندما حرّر السّلطان القدس وأعاد سلطة المسلمين على القدس، ولم يكن ينوي حظر سكنى اليهود والمسيحيّين، فقد استمرّ العمل بمبدأ التّعايش والاندماج القديم. وعلى هذا خيّر المسيحيّين بين المغادرة والبقاء، فلم يجبر أحدا على الخروج وترك مكانهم المقدّس، فطلب هو نفسه من بضعة آلاف من الأرمن النّصارى السّوريّين العيشَ في المدينة، ودَفْعَ الجزية الّتي تحقّق لهم الأمن، ولا سيّما المسيحيّيون الأرثوذوكس فأعفاهم عن الفدية وسلّمهم الذّخيرة المقدّسة والوصاية على كنيسة القبر المقدّس، وسمح لهم بشراء أمتعة الصّليبيّين. ثمّ قام الفقهاء وعلى رأسهم (الفقيه المعتمد والمقرّب لدى السّلطان ومستشاره، ضياء الدّين عيسى بن محمّد الهكاري) بوضع الأقلّيات الكاثوليكيّة المختلفة، وتمّ إعطاء الرّخصة لأربعة كهنة كنيسة القيامة بالبقاء في القدس دون دفع أيّة جزية أو ضريبة (أبو شامة 2003، 270)و (أرمسترونج 1998، 488) و (عبدالرحيم 2019، 18).

لم ينحصر منح حرّيّة التّديّن في القدس فقط، وإنّما شمل جميع الأماكن الّتي كانت تحت حكم السّلطان بما فيها الأماكن الّتي تمّ استرجاعها بقوّة. وكمثالٍ على هذا، مدينة اللاذقية، كان فيها كنيسة عظيمة، نفيسة قديمة، ولمّا أُخْرِجَت المدينةُ من حكم الصّليبيّين، وهدأت أوضاع الحرب، عاد إلى هذه الكنيسة بالأمان القسوس. وتأسّف المسلمون لما جرى للمدينة من خراب الحرب (أبو شامة 2003، 272-273).

هناك مشهد تعبيري عن التّسامح الممنوح لجميع الأديان في العصر الصّلاحي، وهو مشهد جامع عمرو بن العاص، والّذي أعاد السّلطان بناءه عام (1172م)، فإنّ أصحاب الأديان الإبراهيميّة الثّلاثة، من مختلف أصقاع المعمورة وسائر الأديان كانوا يستطيعون التّجمّع والصّلاة الجامعة فيه أيّام البؤس والحصول بتقواهم على فيضان النّيل الضّروري. كان المسلمون وراء علماؤهم، والمسيحيّون من كلّ مذهب، واليهود مع قرّائهم وربابنتهم مجتمعين إخوة في السّاحة الكبرى للمسجد قبل أن يتوجّهوا لأداء الصّلاة معًا بعد الوضوء (شاندور 1993، 98).

أمّا الصّليبيّون، على خلاف ذلك، فضيّقوا الخناق على الجميع بمن فيهم النّصارى من الأرمن والجورجيّين والمقدسيّين والشّاميّين واليهود كذلك، لأنّهم عدّوا أغلب المحلّيّين هراطقة غير جديرين بالاحترام، ونهبوا كنائسهم وأعيانهم، لكن نظرًا لوضعهم العدائي تجاه غير المسيحيّين تدرّجوا في تليين معاملتهم مع نصارى القدس. ومن أحد أسباب تغيّر الموقف معهم، أنّ القدس صار مدينة خالية تقريبًا من السّكّان، ومن هنا كان يأمل القائد الصّليبي (بلدوين الأوّل) في إعادة النّصارى المحلّيّين مرّة أخرى إلى كنائسهم وأديرتهم في القدس، وحقّق مبتغاه عام (1101م) فأُعِيدَتْ مفاتيحُ المقبرة إلى اليونانيّين، وسُمِحَ لبقيّة الطّوائف المسيحيّة بالعودة إلى أضرحتهم وأديرتهم وكنائسهم في القدس. والمسلمون أيضًا كانوا محرومين من أطرهم الاجتماعيّة والدّينيّة الرّسميّة والتّقليديّة (كاهن 1995، 215) و (أرمسترونج 1998، 460-461). بل لم يستثنوا أحدا من سكّان القدس الأصليّين المسلمين والمسيحيّين واليهود من مذبحتهم أثناء الاستيلاء على القدس (لوبون 2012، 338).

أصيب اليهود (الّذين لا يتجاوز عددهم الألف نسمة) بمثل ما أصيب به المسلمون من التّمييز والخناق، والصّليبيّون كانوا حاقدين على اليهود، ولهذا أوّل ما دخلوا القدس جاؤوا إلى الحيّ اليهودي، فكانوا أوّل ضحاياهم، ومَنَعُوهم من العيش داخل أسوار المدينة، وهم مع فقرهم وانعزالهم اعتبرهم الصّليبيّون ملاعين قلبا وقالبا (رستون 2002، 141). لكنّ السّلطان منحهم آمالاً كبيرةً عندما أتى بهم إلى القدس، وسمح لهم بالعيش هناك بأعدادٍ كبيرة. ونتيجة لهذه الحرّيّة بدأ اليهود بالتوجّه نحو القدس، وإذا بأعداد كبيرة منهم في التّوافد من شمال إفريقيا عام (1198م)، وكذلك قدمت ثلاثمائة عائلة يهوديّة من فرنسا (أرمسترونج 1998، 490).

3-3 التّعامل مع الأسرى

التّعامل مع الأسرى من النّقاط الّتي أبرزت شخصيّة صلاح الدّين وجعله مثالا يحتذى به، وهذا لا يعني أنّه لم يكن للسّلطان مواقف صعبة تجاه الأسرى من القتل وغير ذلك، لكن بالعودة إلى المقارنة بين الجانبين ثمّ ندرة المواقف السّلبية كانت ردَّ فعلٍ أو سنًّا بالسّنّ، يمكّن الإنسان للشّعور بالتّفاوت بين المعسكر الصّليبي والمعسكر الأيّوبي.

نبدأ تاريخيًا مع الأحداث لبيان المواقف المختلفة حسب التسلسل الزّمني المولّد للأحداث.

ريجنالد دو شاتيون(Renaud de Châtillon) الحاكم الصّليبي لإمارة أنطاكية، من أشدّ النّاس كرهًا لدى المسلمين، كان قاسيًا مع الجميع، وكان طموحًا غير مبالٍ بقيم وأخلاق، ولم يكن دافع مجيئه إلى الشّرق عام (1147م) روحيًا وإيمانيّا، بل بما أنّه من صغار نبلاء فرنسا، كان طمّاعًا للحصول على الحظّ والثّروة، وكدليل على قساوته احتجز بطريك أنطاكية لرفضه تمويل الحملة الصّليبيّة على نصارى جزيرة قبرص، وجرّده من ثيابه، ثمّ صبغ جسده بالعسل، ونصبه في الشّمس طعمًا للذّباب والحشرات، هذا عدا اغتصاب النّساء وممارسة العنف البربري، وتشويه الأجساد ونهب وتخريب قبرص. وفي عام (1160م) حينما كان الرّجل المتوحّش يجوب منهمكًا في سرقة أموال المسلمين ولا سيّما ماشيتهم، سقط في كمينٍ لجنود مسلمين، وألقي به في سجن قلعة حلب. بقي هناك أربع عشرة سنة دون إهانة أو سوء معاملة إلى أن أطلق سراحه عام (1176م) بعد دفع فدية قدرها اثنا عشر ألف دينار، ولو لم يكن الآسرون مسلمين لذبحوه مباشرة لسوء سجلّه في كراهية وتعذيب المسلمين. والغريب أنّه لم يوجّه شكرًا ولا احتراما تجاه تقديرهم له، وازدادت كراهيتُه لهم، وأصبح أكثرَ حرصًا على إيذائهم بسببٍ أو دون مسوّغٍ (رستون 2002، 47-50).

لم يزل شاتيون يفكّر في إيصال أشدّ الإيذاء إلى المسلمين منذ خروجه من السّجن، وبعد مضيّ سبع سنين على إطلاق سراحه، قام بأخبث مؤامرةٍ لهدم مكّة والمدينة

وسرقة أموال النّاس ونزع الحجر الأسود ونبش قبر النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فغضب صلاح الدّين من ذلك. لكن فَشِلَتْ خطّتُه في الاستيلاء على الحرمين الشّريفين، وانهزم أمام جيش المسلمين هرب تاركًا وراءه أتباعه وفرسانه، فأُسِرَ بعضهم، وأُخِذوا إلى القاهرة، وقُطِعَتْ رؤوسُ بعضهم. ونذر السّلطان أن يقبض على رأس الجريمة، وأن يقطع رأسه بيده (الدهان 1960، 100). وهذا ما حدث بالفعل، حيث وقع هو والملك الفرنسي وقائد صليبي في معركة حطّين گي دي لوزينان(Guy de Lusignan) أسيرَيْنِ بأيدي المسلمين، ولمّا عُرِضا على السّلطان التفت إلى الملك بوجهٍ بشوشٍ وباحترامٍ ووقارٍ وطَلَبَ منه الجلوسَ إلى جانبه. أمّا شاتيون فحقّ عليه الموتُ وهو الّذي أغار على مكّة والمدينة دون تحقيق الهدف، وأسر قافلة المسلمين على طريق الحجّ إلى مكّة، (تقدّم الحوار بينهما). أمّا الجنود الأسرى فجمعوا وسِيرَ بهم باتّجاه دمشق وبيعوا عبيدًا. لكن استثني من بينهم من تلطّخت أياديهم بالدّماء وكانوا مصمّمين على فعلهم ولم تنكسر إرادتُهم، فلم يكونوا موضع أمانٍ أبدًا وكانوا في انتظار فرص الانتقام والغدر، وهم من فرقتَيْ الهيكل والأسبتاريّة وهم قلب الدّفاع وقُتِلُوا، باستثناء جيرارد دو ريدفور مقدم فرسان الهيكل، وأسوء الجميع على الإطلاق، رجاء أن يكون نافعًا في المفاوضة (الشامي 1991، 130-131).

أُسِرَ صليبيّ آخر اسمه وليم أوف مونتفرا، وأبقاه صلاح الدّين حيّا، وبعد تحقيق الانتصار الكبير في حطّين استولى على قلاع الصّليبيّين إلى أن وصل المسلمون إلى مدينة صور، وجدوها محصّنة بقيادة كونراد أوف منتفرا ابن وليم أوف الأسير، لكنّ الابن كان حازمًا مغامرًا له تاريخٌ في القتل والتّآمر، فأرسل السّلطان إليه وفدًا برسالة مفادها: (إطلاق سراح الوالد والإنعام عليه بمالٍ كثيرٍ) مقابل (تسليم المدينة مع السّماح لمن يريدون المغادرة مع ما لهم). والابن بدل الموافقة، صعد الأسوار وصاح: "قطّعه إرَبًا، فماذا يهمّني؟ سأكون أوّل من يطلق عليه سهمًا، لأنّه عجوز ولا قيمة له!). والسّلطان لم يكن يريد القتل للأسرى إلاّ في حالات ممّن لا يُؤْمَنُ على سراحهم، أو ارتكبوا جرائم حرب، لذا نوى تقريب الوالد من الابن، ولم ينزعج الوالد عندما قُرِّبَ للأسوار، وصاح مخاطبًا ابنه: "كونراد، أحرس المدينة وادفع عنها جيّدًا! وقتل كونراد والده بإطلاق سهمٍ تجاهه. ومن هنا خيّم حزن على السّلطان وتأثّر بالمشهد، وتعجّب من إقدام الصّليبيّ على هذا الموقف، لذا قال: "هذا الرّجل كافر، وبالغ القسوة". ومن هذا النّصّ يتّضح مدى تشرّب قلب السّلطان بالرّحمة حتّى مع الأعداء الحربيّين، فما كان ينوي القتل لكنّه قُتِل عمدا على يد ابنه (ماجد 1987، 123).

أفصح الصّليبيّون بحقيقة أنّ جيش المسلمين لن يقتلوا الأسرى ما أمكن، فليس همُّهم القتلَ، وإنّما الدّعوة إلى الإسلام، ومن هذا المنطلق جاء كلام أيراكليوس بطريك القدس قبل تحريرها عندما أكّد لباليان القائد الصّليبي أثناء مناقشتهم من تسليم المدينة وعدمها فقال: "فالعرب لن يقتلوهم، بل سيدفعونهم إلى ترك إيمانهم بالمسيح، وسيضيعون في عين الله". وكان الجواب من صلاح الدّين عدمَ بقاء المجال للصّلح، وصرّح بأنّه يهاجمهم ويقتل الرّجال ويبيع النّساء والأطفال في السّوق, لكنّ هذا الكلام في الحقيقة كان مجرّد تهديد أثناء الظّفر في القتال، لأنّه في نهاية المطاف انتصر عليهم ولم يقتل الرّجال بعد الحرب ولم يبع النّساء والأطفال، وقال: "سأكون رحوما مع بني قومك". (كما سيأتي الحديث عنه في أخلاقيات الحرب). وفي المقابل تعهّد الصّليبيّون بقتل الأسرى المسلمين وهم خمسة آلاف (عجيل 2023، 530).

الآن نأتي إلى مشهد صليبيّ آخر مشهد مليان بالخزي والعار والّإنسانيّة أثناء استيلاء الصّليبيّين على القدس، مشهد جعل من سعدي الشاعر أن يقول: "لا يستحقّ أولئك أن يسمّوا بشرًا" (لوبون 2012، 337)، ثمّ نقارنه بمشهد إسلاميّ يملؤه العزّ والكرامة والإنسانيّة والترّحّم أثناء استرجاع صلاح الدّين القدس.

احتلّ الصّليبيّون القدس في (15 تموز 1099م) وبعد انتهاكات مشمئزّة في ميدان القتال (والّتي سيأتي الحديث عنها) وقع ستّون ألف أسير من سكّان القدس في قبضتهم وهم من المسلمين واليهود والنّصارى الّذين يُطْلِقُ الصّليبيّون عليهم (خوارجَ النّصارى)، وبعد عقد مؤتمر أجمع الصّليبيّون على إبادة جميعهم، وتمّ تنفيذ القرار وأجهزوا على قتلهم في ثمانية أيّام، ولم يستثنوا منهم امرأة ولا ولدًا ولا شيخًا (لوبون 2012، 338).

أمّا المنظر العكسي أثناء استرجاع المسلمين القدس فمختلف تماما. لمّا تمّ خرق سور القدس، وكان في المدينة مسؤولان وهما البطرك أيراكليوس، وقائد الجيش باليان أوف إبَلين، اجتمعت نسوة الصّليبيّين مع أطفالهنّ في كنيسة الذّخيرة المقدّسة، وذهب المسؤولان إلى السّلطان للتّفاوض وإيجاد حلٍّ سلميٍّ، أشار المستشارون للسّلطان بالانتقام، ويفهم هذا من كلامه تجاه مبعوثَيْ أهل الصّليب: "رجالي العقلاء يقولون إنّه لا يمكن تنظيف المدينة إلاّ بالدّم المسيحي"، وذكّرهما بما حدث قبل ثمانٍ وثمانين سنة: "ومستشاريّي يقولون إنّ عليَّ أن آخُذَ بثأر أولئك المسلمين الّذين قتلهم غودفري في الشّوارع، بل وفي الكنائس والمساجد"، "لا أفعل إلاّ كما فعلتم بأهله حين ملكتموه من المسلمين سنة إحدى وتسعين وأربعمائة من القتل والسّبي، وجزاء السّيّئة بمثلها"، لكن يبدو أنّ هذه الشّدّة كانت تهديدا لفرض الشّروط أثناء المفاوضات، وبعد مشادّات كلاميّة أعطى السّلطان كلمته إلى المفاوضين الصّليبيَّينَ، وقال مخاطبا قائد الجيش الصّليبي: "سأخبرك ماذا سأفعل. سأكون رحومًا مع بني قومك، وأحفظ قَسَمي في الوقت نفسه. تستسلمون كأنّما أُخذت المدينةُ عنوةً. وسأتركهم يأخذون معهم ممتلكاتهم وثرواتهم. أمّا أولئك الّذين يستطيعون أن يفتدوا أنفسهم فسأتركهم يذهبون مقابل مبلغٍ معلومٍ. وأمّا الّذين لا يستطيعون شراء حريّتهم فسيظلّون عبيدًا عندنا" (ابن الأثير، 1997، 35/10) و((رستون، 2002، 126).

جاء الوقت العملي ليرُى السّلطانُ الحقيقيّ بين ظلم الصّليبيّين التّاريخي والّذي استمرّ معهم إلى آخر حكمهم في القدس وبين رحمة سلطانٍ ظافرٍ رحيمٍ:

بعد أن تمّ الاستيلاء على القدس ودون أن يُقْتَلَ مسيحيٌّ واحدٌ (أرمسترونج 1998، 482) طفق الصّليبيّون بالإجلاء، وقد استغرق ذلك قرابة أربعين يومًا. وبدأ الاتّفاق بالتّنفيذ حول الأسرى بين الفدية والاسترقاق، نجا بعض الصّليبيّين بالفرار عبر الأسوار بالحبال، وفرّ بعضهم داخل صناديق المتاع، وأخفى بعضهم أنفسهم في ملابس الجنود المسلمين. واضطرّ بعضهم إلى بيع ممتلكاتهم بأسعار بخسة رجاء دفع الفدية. والغريب أنّ البطرك إيراكليوس المسؤول الأوّل على المدينة قام بنهب الكنيسة وجرّد الجدرانَ من صفائح الذّهب. وبعد أن شكى مساعد السّلطان على هذا الجشع لدى الكهنة بقوله: "إنّ هذه أموال وافرة، وأحوال ظاهرة تبلغ مائتي ألف دينار، والأمان على أموالهم لا أموال الكنائس والأديار، فلا تتركها في أيدي هؤلاء الفجّار"، أجابه صلاح الدّين جواب شهمٍ عزيزٍ كريمٍ: "إذا تأوّلْنا عليهم نسبونا إلى الغدر... فنحن نجريهم على ظاهر الأمان، ولا نتركهم يرمون أهل الإيمان بنكث الأيمان، بل يتحدّثون بما أفضيناهُ من الإحسان".

ثمّ بقي عدّةُ ألوفٍ بدون فدية، وبِيْعُوا عبيدًا، لكنّ السّلطان لم يَهْدَءْ إلى التّجارة بالبشر. وفتح قلبه لمقترحات تعتق هؤلاء ويؤدّي إلى فكّ قيود العبوديّة. ومن هنا استجابة لمناشدة البطريك أمر بإطلاق سراح خمسمائة من الأسرى الفقراء العاجزين عن دفع الفدية، وتحرّروا من العبوديّة. وأعفى المسيحيّين الأرثوذوكس عن دفع الفدية، وسمح لهم باستلام الذّخيرة المقدّسة. كما سمح بإطلاق سراح خمسمائة مسيحي أرمني لمجرّد أنّهم أرمن. وأطلق سراح ألف آخرين؛ لأنّهم أتوا من الرّها وكانوا ضيوفا بالمدينة. وسمح للملكة سبيلا ملكة القدس وأعضاء بلاطها بمغادرة المدينة، وفسح المجال لزوجة ريجنالد بافتداء نفسها بعد مقتل زوجها. وأشفق السّلطان شفقة خاصّة على النّساء وكان معروفا بشفقته تجاههنّ، فأطلق اللّواتي توفيّ أزواجهنّ، واللّواتي كان أزواجهنّ أسرى عند المسلمين. كما أطلق سراح الأزواج بدون مقابل، وأغمر المحرَّرين بهدايا كثيرة.

أهدى السّلطان ألف عبدٍ إلى شقيقه وخليفته الملك العادل، وكان على علمٍ أنّه سيحرّرهم، وكان طلب الشّقيق: "سيّدي! لقد ساعدتك على فتح هذه البلاد، ودخول القدس: فهل تستطيع إعطائي ألف عبد من الفقراء؟!" ومنحه إيّاهم، وهو بدوره حرّرهم. وبقي جزء من الصّليبيّين عبيدًا يباعون.

إعتاق السّلطان لألف نصراني كان بعد منحه هديّته إلى أخيه بتحرير ألف نصرانيٍّ آخرين قبل ذلك، وله مقولة جميلة في ذلك عندما توجّه إلى ضبّاطه قائلاً لهم: "أخي قدّم ضحيّته، وكذلك البطريك وباليان، والآن وبسرورٍ سأقدّم ضحيّتي"، وكانت ضحيّته الإعلانَ في جميع شوارع القدس أنّ كلّ المسنّين وكلّ مَنْ لا يستطيع دفع فديته فهو حرّ للمغادرة.

عندما غادر المسؤولان في آخر عربة الصّليبيّين، رافق جنودٌ مسلمون المحرَّرين إلى حدود الدّولة الإسلاميّة حماية لأرواحهم وحفاظًا على أموالهم. وهكذا سلك جنود صلاح الدّين سلوكًا مثاليًا حينما استرجعوا القدس عام (1187م) بعيدًا عن الانتقام عمّا

جرى في المكان نفسه عام (1099م) على يد الصّليبيّين ضدّ المسلمين (أبو شامة 2003، 248) و (بول 2023، 196) و (أكبر 2009، 128).

فيما يتعلّق بالملك غي الأسير لدى السّلطان، بقي في الأسر مدّة عام، وكان صلاح الدّين في استعدادٍ تامّ لإطلاق سراحه بأربعة شروط: (التّخلّي عن مملكته. عدم العودة لإشهار السّلاح على المسلمين. القسم على الولاء الأبدي لمحرِّره. مغادرة الشّرق الأوسط بأقرب وقتٍ). ثمّ توسّلت الملكةُ سبيلا نداء شخصيًا لصلاح الدّين، وإثر ذلك ونتيجة لاختلاط المشاعر والمبادئ بالسّياسة أطلق السّلطان سراح الملك في تموز (1189م). لكنّ الملك لم يَفِ بوعده وحَنَثَهُ فوراً وذهب إلى صور لمواصلة أعماله العدائية ضدّ المسلمين في الشّرق الأوسط (رستون 2002، 184-185).

بعد فقدان المسلمين عكّا وقع عددٌ كبيرٌ منهم أسرى في قبضة الصّليبيّين برئاسة الملك الإنجليزي ريتشارد الملقّب بـ(قلب الأسد)، لم يوافق السّلطان على الشّروط، لكن وبعد تفاوضٍ طويلٍ انحنى أمام الأمر الواقع وخضع لشروط الملك الصّليبيّ من تسليم أكثر من خمسمائة أسيرٍ مسيحيّ، ومئتي ألف بيزنطيّة ذهبيّة، وإعادة صليب الصّلبوت (وهو قطعة من الخشب يدون أنّ المسيح عليه السّلام صلب عليها، وكانت ضمن الصّلبان الثّلاثة الّتي فقدت فترة طويلة والّتي صلب عليها يسوع النّاصري واللصّان، وهي ذخائر مقدّسة كانت قد اختفت عدّة قرون قبل ذلك. ويقال تمّ تمييز صليب المسيح بواسطة إنزال امرأة مريضة في سكرات الموت على كلّ من الصّلبان الخضبيّة بالدّور، وأنّها شفيت بوضعها على الصّليب الحقيقي، وبهذا تبيّن أنّه هو الصّليب الّذي صلب عليه المسيح (هويتكروفت 2013، 289)، ويبقى ألفا مسلم في الأسر، وكذلك يؤخذ مائة من الأكثر ثراءً، ومن الشّخصيات الوجيهة في البلدة، كرهائن.

كان موعد تنفيذ الاتّفاقية ثلاثة أشهر على أن يكون الدّفع بالأقساط. وبعد مضيّ شهرٍ وجد صلاحُ الدّين صعوبةً في التّنفيذ ولا سيّما في تكملة العدد حتّى السّتمائة. وكذلك نوعيّة من ينبغي فكّهم من الأسر، ولذا حاول صلاح الدّين كسب الوقت، فَقَدَّمَ عرضه على أن يكون سراحُ الأسرى المسلمين قبل بدء الفدية، والسّلطان تباطأ إمّا لعدم وسعه من تكملة العدد والمبلغ أو لعدم ثقته بالملك الصّليبيّ وخصوصًا أنّ تاريخهم كان حافلاً بنقض العهود، فأعلن السّلطان أنّه بموجب المعاهدة يجب أن يتمّ بآنٍ معًا تسليم الصّليب والذّهب والأسرى وإطلاق سراح قسمٍ من سكّان المدينة المسلمين المحصورين في حيٍّ واحدٍ. فذكّره السّلطان بما عليه فِعْلُهُ، لكنّ القائد الصّليبي تصلّب في موقفه، واشترط أن يتمّ له الدّفع أوّلاً، وكلام (ابن شدّاد 1994، 281) صريح في ذلك: "فأي السّلطان ذلك لعلمه أنّهم إن تسلّموا المال والصّليب والأسرى وأصحابنا عندهم لا يؤمن غدرهم، ويكون وهن الإسلام عند ذلك وهنًا عظيمًا، لا يكاد يَنْجَبر"، وتحقّقتْ ريبةُ صلاح الدّين. ومن هنا جاء تهديد الصّليبيّ وأظهر ما كان أبطن بإعدام أكثر (2700) مسلمٍ أسيرٍ في حوزته إن لم يستلم أمواله وصليبه ورجاله في الحال، وبعد أيّام نفّذ تهديده حينما أقدم في (20 آب 1191م) على قتلهم جميعًا إثر إخراجهم رجالا ونساء عراة موثّقين بالحبال، وكان قد صالحهم، وتسلّم البلد منهم على أن يكونوا آمنين على نفوسهم على كلّ حالٍ (عزام 2013، 233-238).

بعد يومين من هذه المجزرة، كان الجيش الصّليبيّ في الطّريق حينما وقعت مناوشاتٌ طفيفة مع سرايا صغيرة لجنود المسلمين، وخلال هذه العمليّة، وقع نبيل كونتي هنغاري أسيرا عند المسلمين، فعُرِضَ على السّلطان، وأخذ منه بعض المعلومات وأمر بقتله دون التّمثيل به ولم يسمح بالعقوبة بالمثل (رستون 2002، 294). والقتل هو آخر ما كان يلجأ إليه السّلطان، وكان في حالاتٍ حرجةٍ وفي حقّ أناسٍ معيّنين ليس بسبب أسرهم فقط، بل لخيانتهم وارتكابهم جرائم حرب غير مغتفرة. ومن هذا المنطلق نجد العدد الكبير للأسرى حينما كانوا يقعون في الأسر تمرّ الإبقاء عليهم غالبا للتّبادل مع أسرى المسلمين، وأحيانا يباعون عبيدًا مثلما حصل بعد سقوط قلعة حبس جلداق المشرفة لبحيرة طبريّة، ولدى عودة السّلطان من مصر إلى دمشق جرّ وراءه ألف أسيرٍ بيعوا في سوق النّخاسة (شاندور 1993، 162).

تَعَامُلُ صلاح الدّين مع الأسرى لم يَضِق في القتل أو السّراح أو الاسترقاق، بل كان يخالطهم أثناء تواجدهم في السّجن ويحاكيهم دون خوف وبحريّة كاملة (رستون 2002، 364).

3-4 المفاوضات والصّلح

ميزة أخرى لتصوير صلاح الدّين بطلاً تاريخيًّا إنسانيًّا متميّزًا ولا سيّما بين أقرانه من شتّى الدّيانات في عصره، هي روح المفاوضات والصّلح. وفي هذه الفقرة نقف وقفة مقارنة بين روحه التّفاوضية والصّلحية ومدي صدقه في خطواته، ثمّ تأتي المقارنة بالحديث في نفس الرّوح من الطّرف المقابل أثناء المفاوضات والصّلح.

هناك مفاوضات عديدة جَرَتْ بين الفريقين مع شروط كثيرة واتّفاقيات جليلة، منها اتّفاق السّلطان مع ريموند كونت طرابلس، اتّفق الطّرفان على عهد السّلم والمساعدة والتّعاون، ولاسيّما كان الموسم قحطًا وجفافًا، وزوّده صلاح الدّين بالماء والطّعام، حتّى وصل الأمر بالصّليبيّين أن يشكّوا في مدى صدق ريموند معهم، أو بالأحرى أنّه خان دينه وقومه بمساعدة السّلطان. ومن المسلمين من رأى فيه نفاقا وخيانة بإظهاره الإسلام وإضماره نقضه والمؤامرة. وحديث البحث هنا في مدى صرامة بعض الاتّفاقيات. وأقيمت علاقات قويّة بين الطّرفين بعدما بعث الصّليبيّ وفده إلى السّلطان مبديًا سروره ببناء مثل هذه العلاقة. واستقبل السّلطان الخطوة، ووعد الصّليبيَّ بالمساعدة والتّأييد في مسعاه ليكون سيّدا مطلقا للفرنجة. وكعلامة على صدقه في وعده السّابق، أطلق السّلطان سراحَ عددٍ من الفرسان الطرابلسيّين الواقعين في قبضته (شاندور 1993، 213- 214) و (قلعجي 1992، 320).

بعد معركة حطّين دخل السّلطان في المفاوضات مع أهل طبريّة على تسليم طبريّة والسّماح لزوجة ريموند الثّالث بالخروج سالمة مع متاعها وحاشيتها، وأن تنسحب إلى ولايات زوجها. ونفّذ السّلطان وعده وأصحبها قوّةً من الفرسان حفاظا لها من رشاش أيّة إهانة خلال رحلتها على يد البدو، ودخل القلعة في (7 تموز 1187م).

في اليوم التّالي وصل عكّا ودخل في المفاوضات مع جوسلان الثّالث دي كورتناي حاكم عكا، وبعد يومٍ آخر دخل المدينة. وتمّ تطبيق بنود الاتّفاق وهي إعطاء الحرّيّة للسّكّان في اختيار البقاء أو المغادرة مع الأمان الكامل في الحالين. ثمّ أطلق سراح الأسرى المسلمين هم أربعة آلاف، ثمّ أقيمت مراكز على الأبواب وفي السّاحات العامّة لمنع أيّة فوضى وأيّ نهب.

صمدتْ مدينةُ بيروت في وجه هجوم صلاح الدّين ستّة أيّام، ثمّ جرى التّفاوض على أن يتمّ تسليم المدينة تسليمًا مشرّفًا، وحصلوا عليه (شاندور 1993، 213-216).

اقترب جيش المسلمين من مدينة صور، وأرسل السّلطان وفدًا إلى حاكمها وأنذره بالتّسليم، وبعد رفض التّسليم بدأت الهجماتُ والهجمات المضادّة بالتوالي، إلى أن بدأتْ مفاوضاتٌ جديدةٌ، قدّم السّلطان فيها عرضا مفادُه: على الصّليبيّين دفع مفاتيح المدينة، ولهم حرّيّة ملك القدس الأسير لدى صلاح الدّين وباروناته الرّئيسيّين وتحريرهم من نار الاستعباد، فقبلوا عرض التّسليم بشروط، وهي: إعطاء هدنةٍ أربعين يومًا لتنظيم أمورهم، ثمّ قيادتهم وأموالهم إلى مكانٍ آمن، والحرص على مائة عائلة تريد البقاء في المدينة، وتدفع عنها كلّ إهانة أو عنف، والشّرط الأخير إطلاق سراح الملك وعشرين من السّجناء على اختيارهم. فقبل السّلطان الشّروط لكنّه أجّل موعد سراح الأسرى الأربعين إلى الرّبيع القادم (شاندور 1993، 220-221).

بعد مرور شهرين ونصفٍ على معركة حطّين وفي (20 أيلول 1187) ظهر السّلطان بجيشه أمام القدس، فاقتحم أسوار المدينة وبدأ بطلب من السّلطان التّفاوض على الاستسلام بدل الاقتتالِ وأخذِ المدينة عنوة، ووعد بـ(عدم إرهاق المدينة بالضّرائب، والاكتفاء بمبلغٍ رمزيّ مقدارُه ثلاثون ألف قطعة ذهبيّة، وعدم مساس حقوق المسيحيّين الّذين يفضّلون البقاء في القدس)، لكنّ القادة رفضوا الاقتراح وحاولوا تمديد المفاوضات والاحتيال على صلاح الدّين آملين وصول أسطول جنوى معه جنودٌ وعَتادٌ وقاذفاتُ حجارةٍ. لذا ردّوا على السّلطان بالقول: "لا يمكننا أن نسلّمك مدينةً مات فيها ربُّنا، كما ليس بمستطاعنا أن نبيعك إيّاها". فشلت المفاوضاتُ وأجابهم صلاح الدّين بردٍّ ناريٍّ قائلا: "ستلعنون عنادكم وستستجدون رحمتي، وسأدخل القدس خلال أيّام معدودة، ولا أدري حينذاك كيف سأمنع جنودي المنتصرين من أن يعرضوا على السّيف الفرنجة النّاجين من الموت، كما فعلتم أنتم بالمسلمين حينما دخلتم القدس سنة (492للهجرة). أتذكرون أنّكم ذبحتم سبعين ألفا من المسلمين في المسجد الأقصى؟".

بعد مدّةٍ من الاقتتال استُأْنِفَت المفاوضات، وكان باليان القائد الصّليبي في القدس يرأس الوفد الصّليبي، وكان السّلطان في استقبالهم ولامَهُمْ على عدم رغبتهم في التّفاوض حقنا لدماء المحاربين، ثمّ هدّدهم بأنّ الجنود المسلمين سيستولون على المدينة ويذبحونكم كما ذبحتم المسلمين أوّل مرّةٍ. فعرض باليان مائة ألف دينار باسم السّكّان، وهدّد السّلطانَ بأنّهم لن يتستسلموا وسيقاتلون إلى آخر الرّمق ويخرّبون المدينة ويهدمون مساجد المسلمين ويدمّرون الأقصى. أمّا فيما يتعلّق بنسائهم وأطفالهم فأوضح بأنّهم سيقتلونهم بأنفسهم.

كان طلب صلاح الدّين الدّخولَ بالأمان، وتقديمَ الضّمان على أرواحهم وأموالهم واختيارهم بين البقاء والمغادرة، لكنّ صورة المدينة المهدّدة على لسان قادة الصّليب مدينة مدمّرة كمدينة أشباح حتّى الأطفال والرّضع سيقتلون، هذه الصّورة هزّت روح السّلطان وإن كان الضّحيّة أولادَ أهل الصّليب، فطلب من الوفد المفاوض أن يعودوا غدا حتّى يستشير مع الفقهاء وخصوصًا أنّه أقسم على دخول القدس شاهرا سيفه، وعليه أن لا يرضى بالاستسلام السّلمي. لكنّه ارتضى نفسيًّا حينما أفتى الفقهاء بعدم حنث قسمه إذا استسلم الفرنجة بلا شروط، وهذا تَسَاوَى مع رغبته الخفيّة في السّلم وعدم إراقة الدّماء وتجنيب القدس مآسي الحرب؛

فكان ميّالا إلى السّلم ولم يكن قاسيًا. اتّفق مع الحاكم الصّليبي على افتداء الفرنجة حرّيّتهم بالشّروط التّالية: (دفع الرّجال عشرة دنانير، والنّساء خمسة دنانير، والأطفال دينارين، ودفع ثلاثين ألف دينار عن العشرين ألفا من المعدمين العاجزين عن فكاك رقابهم)، وفي (2 تشرين الأوّل 1187م) تسلّم صلاح الدّين قلعة القدس، وقد تقدّم في الحديث عن تعامل السّلطان مع الأسرى أنّ صلاح الدّين حتّى عفى عن أكثرهم كلّيًّا فأطلق سراحهم دون مقابل (أبو شامة 2003، 246) و (الشامي 1991، 137-138).

كان صلاحُ الدّين راغبًا في السّلم والصّلح وعدم إراقة الدّماء في كلّ وقتٍ حتّى أثناء الحرب، وبتعبير (ابن شدّاد 1994، 140): "متى طُلِبَ منه الأمان لا يبخل به، رفقًا"، وربّما استغلّ أعداؤه هذه الرّوح الشّغوفة بالسلم والحفاظ على أرواح النّاس وكرامتهم، واستطاعوا أحيانا إيقاف الحرب في حرّها وشدّتها. من أمثلة ذلك ما حدث عندما حاصر السّلطان دربساك الّتي تشرف قلعتها على طريق القوافل الممتدّة من حلب، وفي (16 أيلول 1188م) سقطت دربساك بأيدي المسلمين. وبعد عشرة أيّامٍ توجّهوا إلى حصن غراس للهيكليّين في منتصف الطّريق بين أنطاكية وأسكندرون. أراد صلاح الدّين إدخال الرّعب في قلوبهم أملاً في الاستسلام دون الدّماء، أرسل عددا من المماليك زرعوا الموت حتّى أبواب أنطاكية. أَتَت المحاولةُ ثمارَها فطلب الكونت بوهيموند المرعوب من الهزائم المتتالية هُدْنَةً، وفي المدينة بطريك مساهم معه في الحكم، هو أيضا شاطره فكرة الهدنة، وحاول بدوره التّفاوض مع صلاح الدّين، وفي نيّته أوّلاً إنقاذ ما يمكن إنقاذه، ثانيًا إعادة تنظيم الجنود والتّحصينات، وثالثًا انتظار وصول المساعدات من الممالك الفرنجيّة في الغرب. فلبّى صلاح الدّين طلبهم وعامل المبعوثين معاملة حسنة، وشرعوا في المفاوضات، ومنحهم هدنةً مدّتها سبعة أشهر (شاندور 1993، 249).

في عام (1188م) أقدم إمبراطور الأمبراطوريّة المقدّسة فريدريك باربروس على قيادة حملةٍ صليبيّةٍ جديدةٍ صوبَ الأراضي المقدّسة. بعث إلى صلاح الدّين برسالة طالبه فيها بتسليم جميع الأراضي الفرنجيّة الّتي استرجعها المسلمون، ولمّا أخذ جواب السّلطان بالرّفض فأعلن الحرب ضدّه، ومن خلال المقارنة بين الرّسالتين يظهر الفرق الكبير بينهما ولا سيّما أنّهما لم يكونا في ميدان الحرب كي يتحدّثا بلغتها.

لسان القائد الجرماني كان امتداحا لنفسه شخصيًّا، وتصغيراً لسلطان المسلمين، اتّهمه بتدنيس الأرض المقدّسة، وتوعّده بالمعاقبة والانتقام: "من فريدريك إمبراطور الجرمانيّين الدّائم العظمة المنتصر الأفخم على الأعداء. إلى صلاح الدّين زعيم المسلمين، بما أنّك دنست أرضنا المقدّسة، فمن اهتمامنا الإمبراطوري وواجبنا أن نعاقب مثل هذه القحّة... ونعلمك أنّه ما لم تُعِدِ الأراضي الّتي هي فرنجيّة فسنسير إليك لنجرّب ببركة الّصليب حظّ السّلاح معك".

كان السّلطان آنذاك في الاستعداد للمسير نحو تحرير المدن الثّلاث (صور وطرابلس وأنطاكية) فتلقّى الرّسالة بريبةٍ، وشكّ في صحّتها، وقرأها بهدوء، ثمّ ردّ على مضمون الرّسالة، قال في مستهلّها: "إلى فريدريك العظيم، صديقنا المخلص، ملك الألمان. ثمّ حمد الله وصلّى على نبيّه الأكرم، وبعد ذلك، ردّ على تهديد الإمبراطور، وخيّره بين السّلم مع الحقوق رغم كونهم غزاةً محتلّين حيث سمّى الأراضي بالفرنجيّة وليست نصرانيّة، ووعيده في الحرب بالهزيمة: "فإذا أردت الحرب، وإذا كتب اللهُ لك الهزيمة في لوحه المحفوظ فتقدّمْ وسنسير للقائك، أمّا إذا أردت السّلم، فمُرْ حكّامَ تلك المدن الثّلاث بفتح أبوابها لنا، وعلى أساس هذا الشّرط نعيد إليكم صليبكم ونحرّر أسراكم ونسمح لأحد قسسكم أن يقيم في كنيسة القيامة، ونعيد إليكم أديرتكم، ونحسن إلى رجال دينكم، ونسمح لحجّاجكم بزيارة المدينة المقدّسة، ونحافظ وإيّاكم على سلمٍ لا يعكّر".

بعد مغادرة المبعوث، أدار السّلطان حكمة دبلوماسيّة أثمرتْ أعظمَ نجاحٍ دبلوماسيّ في حياته؛ إذ وقّع معاهدة التّحالف مع إسحاق لانج الأمبراطور البيزنطي والمسيحي العريق الّذي بفضله انضمّت بيزنطة إلى المسلمين، وجاء انحياز البيزنطي نحو صلاح الدّين لحماية الإمبراطوريّة نتيجة خوفه من قوّات باربروس. وتعهّد لانج (بالتّنازل عن إحدى أشهر كنائس بيزنطية لتحويلها إلى الجامع. واستنزاف مؤخّرة جيش باربروس. وقطع الدّروب. وإلجاء باربروس إلى مساومات غير منتهية). أراد صلاح الدّين تحويل التّحالف من مجرّد المظاهر، فَنَصَّ في المعاهدة على: (العهد بكنيسة القيامة إلى الأساقفة الرّوم. السّماح للبيزنطيين بحرّيّة دخول الأراضي المقدّسة). وكتأكيدٍ على صدقه في المعاهدة، أرسل السّلطان سفارة علنيّة إلى القسطنطينيّة: (أمير، ومؤذّن، وقاضٍ، وعدد من الفقهاء) مع هدايا شرعيّة: (نسخة مزخرفة من القرآن الكريم)، وتمّ الاحتفال بهذا اليوم (ابن شدّاد 1994، 205) و (شاندور 1993، 259-265).

في محاولة أخرى للاستيلاء على حصن بوفور(شقيف أرنون) اقترب السّلطان من الحصن عام (1189م)، لكنّ رغبته مع الاسترجاع دون إراقة الدّماء، وحاصره السّلطان من كلّ جهةٍ. وفي الوقت نفسه جاء رينو دي ساجيت أحد قادة الصّليب إلى صلاح الدّين مبديًا رغبته في الإسلام، وكان مطّلعًا على الثقافة الإسلاميّة واللغة العربيّة، وكان يعرف السّلطان جيّدا من إكرام الضيوف وكراهية

الدّماء والبغضاء ومحبّة السّلم والصّلح، فطلب منه تخصيص قصر منعزل للعيش فيه مع عائلته بعدما يأتي بهم من قصر الصّليبيّين وأراد التجرّد عن الدّنيا والانشغال بالقرآن، لكنّ السّلطان وعده بقصر دمشقي، وبالمقابل يسلّم قصر بوفور دون الاقتتال، وطلب مهلة تسعة أشهر حتّى يجذب عائلته من صور دون أن يشعر به الصّليبيّون، لكن شعر المسلمون أنّ الرّجل ينوي شرًّا ويريد إرجاء الهجوم على الحصن حتّى وصول إمدادات الغرب، فهو تبادل نفس الشّعور تجاه المسلمين، ومن هنا طلب للمرّة الثّانية السّماح بالذّهاب إلى الحصن لجلب العائلة، فلم يسمح له السّلطان بالذّهاب منفردًا، ولمّا اقترب مع ضابط مسلم عيّنه السّلطان لمصاحبة الرّجل، فصاح بأعلى صوته وحثّ الجيش الصّليبي لمقاومة المسلمين وعدم الاستسلام وبشّرهم باقتراب المدد من الغرب. فلم يستطع الهروب من أيدي المسلمين وقيِّدَ أمام صلاح الدّين، وسيق إلى دمشق سيراً على الأقدام، لكنّه استطاع تأجيل هجوم السّلطان لمدّة ثلاثة أشهر، مستغلاً تسامح السّلطان وطبيعته السّلمية وحبّه للحفاظ على أرواح النّاس (ابن شدّاد 1994، 152-154) و (بدليسي 2006، 104-105).

في مشهدٍ منفصلٍ وَقَعَ بيد المسلمين صَقْرٌ لفيليب أوغست مسّينة القائد الصّليبي أمام عكّا عام (1191م) فرفض السّلطان استرداده لقاء ألف دينار (شاندور 1993، 320). لأنّه بمثابة دعمٍ معنويٍّ للمسلمين وبشارة بالظّفر به، وكان لقدومه روعة عظيمة (ابن شدّاد 1994، 248).

كان بين الملك وشركائه الصّليبيّين خلافاتٌ حول السّلطة، وأراد ملك فرنسا فيليب أوغست الاستيلاء على عكّا دون قتال، فبدأ بالتّفاوض مع حامية عكّا الإسلاميّة لكي تستسلم له صلحًا، ورجا صلاح الدّين أن يرسل إليه أحد أمرائه لمعرفة المبلغ الّذي يريده السّلطان مقابل عكّا، لكنّ الرّدّ جاء بالرّفض، وبعث صلاح السّلطان رسالة شفويّة قال فيها: "قل لسيّدك: إنّه إذا كان محتاجًا إليّ فليرسل أحد قوّاده، أمّا أنا فلا أطلب منه شيئًا، وليس لديّ أيّ مقترحٍ لأقدّمه له" (شاندور 1993، 321).

كان بين فيليب أوغست ملك فرنسا وريكاردوس قلب الأسد ملك بريطانيا عداوات سلاليّة قديمة، لكنّهما تصالحا أثناء مجيئهما للمشاركة في الحروب الصّليبيّة ضدّ المسلمين، والغريب أنّهما مرضا معًا، وكانا في الاستعداد للاستيلاء على عكّا ثمّ توسيع عمليّات القتال وصولاً إلى القدس. وبعد وصول أخبار المرض إلى السّلطان بادر بحسن النّيّة وأمر بإرسال الفراريج والمرطّبات، وتزويده يوميًّا بتطوّرات الوضع الصّحّي للملكين. وطلب الملك الإنجليزي مقابلة السّلطان، وأهداه صقورًا فخمة، وطلب مقابل ذلك أفراخًا ليطعم صقوره إيّاها، لكنّ الملكين اتّفقا على محاربة صلاح الدّين ونبذ حسن النّوايا، وذلك بعد اتّهام الأساقفة لهما بخيانة الصّليبيّين. وهكذا استُؤْنِفَ القتال (ماجد 1987، 138).

بعد مدّة من القتال الشّديد، اتّصل كلٌّ من ملك فرنسا وبريطانيا سرًّا وعلى حِدَةٍ بالسّلطان للتّصالح معه، وكان قلب الأسد راغبا بالصّلح، ووعد بمجيئه شخصيًّا لمقابلة صلاح الدّين، وأعدّ السّلطان لذلك خيمة فخمة لاستقباله، لكنّه لم يحضر، وبرّر لذلك بإصابته بحمّى خبيثة (شاندور 1993، 328).

بعد ثلاثة أعوام من حصار الصّليبيّين لعكّا، حاول حاكمه المسلم قراقوش التّفاوض معهم لتسليم المدينة، ولكنّ السّلطان لم يوافق على هذه المعاهدة، وأثناء تشاوره مع الأمراء استولى الفرنجة على المدينة في (1191/7/11م)، وكان للسّلطان تبريراته في عدم الموافقة، من سيطرته على جميع الطّرق وقتل خمسين ألف رجلٍ من الصّليبيّين أمام عكّا، وكان السّلطان في انتظار المدد الّذي طلبه من المغرب (قەفتان 2006، 191).

دخل صلاح الّدين مع ريتشارد في مفاوضات أخرى حول تبادل الأسرى ودفع الفدية مقابل عوائل المسلمين المحاصرين في عكّا عام (1191م) لكنّ ريتشارد لم يَفِ بعهده وأراد الخداع ما أدّى إلى مجزرة شنيعة في (1191/8/20م) بإعدام قرابة ثلاثة آلاف مسلم رجالا ونساءً (وقد مرّ الحديث عنه)، فدفع صلاح الدّين مال الفدية إلى أمرائه وأعاد الأسرى إلى مالكيهم القدماء، ووضع صليب الصّلبوت في خزانته (شاندور 1993، 333).

تكرّر القول في هذا البحث من أنّ صلاح الدّين لم يكن راغبا في سفك الدّماء وإفساد حياة النّاس وتخريب الأمن والأمان، ولهذا لم يزل صدره مفتوحًا للتّفاوض والصّلح ومعاهدات السّلام. وفي هذا الوقت، نجد مدى رسوخ السّلم في قلبه؛ إذ بعد مضيّ يومين على المذبحة الفظيعة والمروّعة، زحف الجيش الصّليبي نحو عمق الأراضي المقدّسة متيقّنًا أنّه على أهبة الاستعداد لطرد المسلمين وإلحاق الهزيمة بهم، لكنّ المسلمين كانوا يوازون الصّليبيّين ويستنزفونهم بسرايا صغيرة، والغريب بعد مدّةٍ قليلةٍ على المذبحة وبعدما اتّخذ ريتشارد موقفا له أمام أرسوف قرب يافا، قدّم عرضًا إلى صلاح الدّين مبديًا رغبته في التّفاوض، نسي أو تناسى ما فعله في حقّ ثلاثة آلاف من أسرى المسلمين. كان موقفًا مؤلماً ومحرجًا للسّلطان؛ فالجمع بين شيئين متناقضَيْنْ من ألم الشّهداء وحبّ السّلم وفي هذا الوقت القصير لم يكن سهلاً إن لم يكن أصعب ما يمرّ به الإنسان، والحقيقة في هذه الأوقات

تظهر، فأعلن صلاح الدّين أنّه ليس ضدّ المفاوضات شريطة أن يكون هدفُها تحقيقَ اتّفاقٍ دائمٍ بين الفريقين، وفعلاً تمّت المقابلة بين الملك العادل (أخو السّلطان ووكيله في التّفاوض) وريتشارد بعد ستّة عشر يومًا من المذبحة الجائرة أي في (1191/9/5م). قدّم الملك المغرور والمتباهي شرطًا للمفاوضات ما أغضب وكيل السّلطان؛ إذ اقترح الملك الصّليبي المتغطرس على المسلمين إعادة مملكة القدس وعودة جيوش المسلمين إلى الحدود السّورية القديمة، فانتهت المفاوضات من فورها، الّتي لم تكن مفاوضات بقدر ما هي إهانة وفرض شروط أبعد بكثير من الاستسلام، وفي اليوم التّالي احتدّ القتال من جديد (ماجد 1987، 144) و (قەفتان 2006، 192).

مع كلّ حراك قتالٍ وُجِدَتْ محاولاتٌ تفاوضيّة رغبةً في الصّلح والسّلام أو مؤامرةً وخداعًا أو تحرّكًا ضدّ طرفٍ ثالثٍ، ومثالا على النّوع الثالث من التّحرّك ضدّ طرفٍ ثالثٍ ما قام به القائد الفرنسي كونراد دي مونفرّا بالتّآمر على ريتشارد عن طريق التّفاوض مع صلاح الدّين انتقامًا من الملك الإنجليزي لتجريده القائد الفرنسي من مناصبه بعد مغادرة ملك فرنسا من الأراضي المقدّسة صوب بلاده. فوجّه سالة صداقة إلى السّلطان واعدًا بالقتال ضدّ ملك إنكلترا وإعادة عكّا إلى صلاح الدّين، وطلب مقابل ذلك تسليمه بيروت وصيدا. وكان صلاح الدّين خبيرًا بمؤامرات الصّليبيّين وتبييت نواياهم السّيّئة، فطلب منه أن يبادر ملكَ إنكلترا بالحرب. وعلم ريتشاد بخطّة كونراد، وعقد معه عقد التّصالح، وقدّم له طموحاتٍ ماديّةً وسلطويّةً ولا سيّما أنّهم قريبون جدًّا من أخذ القدس من صلاح الدّين وما بقي بينهم وبين الأراضي المقدّسة سوى مائة كليومتر، وانسحب الفرنسي من تعهدّاته مع المسلمين. وفي هذه الأثناء قدّم ريتشارد عروضًا للصّلح مع صلاح الدّين، وعقد لذلك اجتماعاتٍ عدّةً مع الملك العادل، وثبت على شرطه الّذي هو: (المطالبة بالقدس وأراضي الضّفة الغربيّة للأردن وصليب الصلبوت). وحسم السّلطانُ موقفَه بقوله: "إنّ البلاد الّتي تطالب بها لم تكن يومًا ملكَكُمْ، ولم يشإ الله أن يجعلكم تضعون فيها حجرًا واحدًا. لقد أغرتم عليها وانتزعتموها منّا زمن ضعف المسلمين. فالقدس ليست أقلَّ قدسيّةً بالنّسبة إلينا ممّا هي بالنّسبة إليكم. فإلى القدس كان إسراءُ نبيّنا محمّدٍ؛ ولن يكون في مقدورنا أن نتخلّى لكم عن هذه المدينة المشرّفة دون أن يلحقنا العار إلى الأبد". ثمّ استمرّت المفاوضات الثّنائية بين صلاح الدّين وكلّ واحد منهما على حدة (ابن شدّاد 1994، 315) و (الدهان 1960، 128-130).

بمراجعة سريعة لما سبق في هذا البحث من القتال والمفاوضات يتبيّن أنّ الطّرفين كانا في توتّر دائمٍ من قتالٍ محتدمٍ وسلامٍ هشٍّ، وذلك نتيجة طبيعيّة للواقع المفروض بين الاحتلال ومقاومته، فلا يجتمعان أبدًا في سلمٍ شاملٍ دائمٍ. أمّا الحرب فواضحٌ لأنّ كلّ واحد من الجانبين أراد الفوز على الآخر. أمّا السّلم فلم يَدُمْ أبدًا؛ لأنّ الصّليبيّين بنقضهم الدّائم للمعاهدات أفقدوا صلاحَ الدّين ثقتَه بهم، ووصل به الأمر مطلع عام (1192م) إلى القرار في إطالة ما لانهاية حالة اللاسلم واللاحرب المتأرجحة، بين المسلمين والصّليبيّين. وجاء هذا التّصوّر نتيجة محاولاتٍ جادّة وطويلةٍ من السّلطان لإدامة السلام والأمان، لكنّ الطّرف المقابل لم يترك مؤامرة إلا حاكها، واقتنص جميع الفرص لنقض العهود والتهجّم على المسلمين.

في تلك السّنة اتّفق صلاح الدّين مع مركيز صور للتّوقيع على تسوية شاملة للنّقاط الآتية: (حصول رينو دي ساجيت الوسيط بين الفريقين على مدينة صيدا والأراضي التّابعة لها، وحصول الهيكليّين والأسبتاريّين على قلاعهم السّابقة، واكتفاء مونفرّا بالمدن والأراضي الّتي قد ينتزعها من الفرنجة، وفي حال مساندة المسلمين لهم، فسيحصلون على الغنائم، وتبقى عسقلان على الحياد) (شاندور 1993، 356).

بعد المعاهدة بدأ الاقتتال الدّاخلي بين المعسكر الصّليبي واغتيل منفرّا، ثمّ اشتدّ قتال الصّليبيّين ضدّ المسلمين بقيادة الملك ريتشارد غاية إعادة احتلال القدس بعد تحريرها على يد السّلطان، وبعد مقربة من القدس تيقّن الملك الإنجليزي أنّه من غير الممكن إلحاق الهزيمة بالمسلمين مادام صلاح الدّين حيًّا. والمحصّلة النّهائية بعد سنواتٍ دامية ومعارك متواصلة من الإرهاق المتبادل والاضطرار إلى التّفاهم والبحث عن مخرجٍ، عَرَضَ ريتشارد عرضًا للمفاوضات في تموز (1192م)، وأراد بذلك الانتهاء من الحرب والعودة إلى بلاده بأسرع وقتٍ ممكنٍ، وأبلغ السّلطانَ تعهّدَه من أجل سلامٍ دائمٍ بين الأمم الإسلاميّة وأمم الغرب بـ(التّخلّي عن مطالبته بعرش القدس، والاكتفاء بالشّريط السّاحلي بين يافا وأمارة أنطاكية، وعودة القدس مسيحيّة تحت حماية المسلمين، وعدم المحاولة لإعادة الاستيلاء على شبرٍ واحدٍ من أرض الجليل، والعيش بتفاهمٍ وحسن جوارٍ مع صلاح الدّين)، ويطلب مقابل ذلك: (السّماح للنّصارى بالممارسة الحرّة للدّين المسيحي في كنائس المدينة المقدّسة، والسّماح للحجّاج بزيارة القدس والأماكن المقدّسة دون دفع الجزية، وقبول الرّهبان والقسس في كنيسة القيامة، وإقامة عشرين جنديًّا إنكليزيًّا في قلعة القدس). وبعد رسائل عاطفيّة متبادلة، رفض ريتشارد هدم أسوار عسقلان فانقطعت المفاوضات (ابن شدّاد 1994، 361) و (أكبر 2009، 136).

قدّم كلٌّ من صلاح الدّين وريتشارد عروضًا تفاوضيَّةً دون الوصول إلى نقطة مشتركة محلّ رضى الطّرفين، وكانت نقطة الخلاف الأساسيّة هي عسقلان حيث طلب الملك من السّلطان تعويضه ما صرف في تحصينات المدينة، ولم يقبل السّلطان الشّروط، وأصرّ على عدم التّخلّي عن هذا الموقع، وتدرّج الملك في التّنازلات حتّى تخلّى أخيراً عن جميع مطالبه؛ لتأمين هذا السّلم الصّعب؛ لأنّ عينه كانت على العودة إلى بلاده وحلّ مشاكله هناك (ماجد 1987، 145).

تمّ التوصّل إلى الاتّفاق في (4 أيلول 1192م)، ووقّع على الاتّفاق باسم ملك إنكلترا كلٌّ من هنري دي شمبانية ابن أخت الملك وخليفته على مملكة السّاحل، وباليان الثّاني ديبلين وأنفروا الرّابع دي تورورن، ومن جانب المسلمين وقّع كلٌّ من الملك الأفضل والملك الظّاهر باسم صلاح الدّين سلطان سورية ومصر وما بين النّهرين واليمن، وكان الموقّع عليه وثيقة هدنة لمدّة ثلاث سنين وثلاثة أشهر وثلاثة أيّام. وبموجبها بقي السّاحل من يافا إلى عكا تحت سلطة الفرنجة، وبقيت عسقلان محايدة، وقسّمت منطقة الرّملة إلى قسمين: للفرنجة والمسلمين. والسّماح للمسيحيّين لأداء الحجّ بحرّيّة، وإدارة شؤون الأديرة.

انتشر الخبرُ السّارّ في المعسكرات وفي جميع مناطق حكم صلاح الدّين، وأذاع الرّسلُ الخَبَرَ، وفيه: (بسم الله الرّحمن الرّحيم: وبأمر صلاح الدّين، صلاح الدّنيا والدّين، تمّ الصّلح بين الفرنجة والمسلمين. وصار مسموحًا لشعوب الفريقين أن تعيش بتفاهمٍ، وأن تسافر وتتاجر بحرّيّة في أراضي الفريقين). ورأى المسلمون أنّ هذا الصّلح بمثابة هبة إلهيّة، إذ توفيّ السّلطان في العام القادم، ولو مات أثناء الحرب لربمّا كان لوفاته تداعيات أخرى سلبيّة على جيش المسلمين (ابن شدّاد 1994، 390) (بدليسي 2006، 96-97).

واضح من خلال المفاوضات أنّ السّلطان كان راغبًا في الصّلح والمفاوضات، ولم يكن ميّالاً إلى الحرب. وعلى العكس تمامًا، كان الطّرف المقابل لم يبال بتعهدّاته وشروطه، وهذا أحد أهمّ أسباب بروز شخصيّة صلاح الدّين كنورٍ مضيئ في ليلٍ دامسٍ.

3-5 أخلاقيات الحرب

يتميّز الإنسان وتبرز شخصيتُه أثناء الحروب وفي أخلاق التّعامل مع الأعداء، وهذا سمة أخرى انفرد صلاح الدّين بعدد من جوانبها المختلفة، وممّا يلي يتسلّط الضّوء على عددٍ من أخلاقياته أثناء القتال، ويكون التّركيز على الإيجابيات؛ لأنّها محلّ النّظر في الميدان، وعلى الخصوص عندما يتواجه الطّرفان في القتال ويحتدم العراك.

تقدّم في هذه الدّراسة عددٌ من أخلاقيات السّلطان أثناء الحرب من إكرام الضّيوف وإرسال الأدوية للأعداء وتقديم الهدايا والمبادرة في الصّلح والمعاهدة وغيرها. وفيما يلي ذكر مشاهد أخرى.

أخلاقيات دخول القدس، فعلاوة على ما سلف ذكره من تعامُلَيْنِ متباينَيْنِ بين أهل الصّليب وبين السّلطان، هناك جوانب أخرى تميّز أخلاق الطّرفين. عندما دخل الصّليبيّون القدس عام (1099م) وبعد قتل عددٍ من المسلمين والمسيحيّين واليهود، شاع من بينهم أنّ المسلمين كانوا يخفون ذهبا في أجسادهم، فقاموا بشقّ وفتح جثث كثيرة من القتلى نساءً وأطفالا ورجالا. ثمّ أقبلوا على إحراق كنيس اليهود مع اليهود المحاصرين فيه، وشرعوا بعمليات نهب المدينة. ونهبوا مسجد عمر بن الخطّاب، ثمّ أحرقوه. ودمّروا قبر إبراهيم. وبعد تسعين سنة على هذه الأخلاق السّيّئة، أعاد المسلمون فتح القدس على يد السّلطان صلاح الدّين، لكنّه كان ضابطًا لرغباته في الغضب والثّأر وردّ الفعل والاستيعاب والعدالة، فهو إضافة إلى تعامله النّبيل في الميدان ومع الأسرى وفكّ الأسرى وتحرير العبيد (كما سبق)، كان له تعامل مغاير تماما عن الصّليبيّين، لم يكن عنفٌ إلاّ في بعض القضايا الأسياسيّة والرّمزيّة، ومن مستشاري السّلطان مَنْ نوّه إلى تخريب كنيسة القيامة، وتحريف الاسم من (القيامة) إلى (القمامة)، وهدم القبّة، ونبش المقبرة، ثمّ حرث الأرض، وفي الأخير لا تبقى للنّصارى صلة بهذا البلد، ثمّ تناقشوا حول إنهاء معابدهم وآثارها، وهناك من رفض الفكرة؛ لأنّ عقيدة النّصارى متعلّقة بالأرض المقدّسة وموضع الصّليب والمقبرة، ولا يهمّهم هدم الكنيسة. وتذكّروا كيف أنّ المسلمين تناقشوا الموضوع نفسه عام (1098م) قبل سقوط القدس، وكان قرارهم النّهائي إبقاء الكنيسة على حالها. لأنّ هدم كنيسة القيامة الّتي تعدّ أقدس مكانٍ لدى النّصارى سيسبّب مزيدًا من الكراهية والحقد. والسّلطان أخبرهم قراره المقرّر قبل هذه المناقشة، وهو عدم هدم الكنيسة، وبعد دخول القدس، أُقْفِلَتِ الكنيسةُ لثلاثة أيّامٍ فقط، وسُمِحَ للمسيحيّين الدّخول بعد ذلك. ووجدوا تحويل مسجد قبّة الصّخرة إلى كنيسة، وبسطوا الرّخام على الصّخرة، وبنوا على الصّخرة قبّة صغيرة مذهّبة مع صور كثيرة لأناسٍ وحيوانات مثل الخنازير، فأمر السّلطان بإصلاح ما خرّبه وأفسده الصّليبيّون، وأعادوا مسجد الصّخرة كسابقه، وأصلحوا مزار إبراهيم المكان الّذي نذر فيه التّضحية بولده. وأنزلوا الصّليب وأرسلوه إلى الخليفة في بغداد. ونظّفوا المسجد الأقصى حيث إنّ الصّليبيّين حوّلوه إلى مقر إداريّ واصطبل للخيل، كما نظّفوا وجدّدوا محراب الجامع الّذي حوّله الصّليبيّون إلى

مستراحٍ ومكانٍ للغائط. وأزالوا الصّور والتّماثيل من المسجد بما في ذلك صور الخنازير (أبو شامة 2003، 265-266) و (داچيل 1990، 247).

لم يكن صلاح الدّين ذا روحٍ انتقاميّة، ولهذا لم يصادر الكنائس المسيحيّة، بل اشتراها، ومن هذا المنحى حصل على دير وكنيسة (آنا) بأموال الدّولة (أرمسترونج 1998، 487).

مثالٌ آخر على أخلاق السّلطان هو استجابته لطلب عروس، وذلك أنّ رينو دي شاتيون ألدّ أعداء المسلمين عامّة وصلاح الدّين خاصّة، الّذي جهد للاستيلاء على الحرمين الشّريفين، وإخراج جثّة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم من القبر، وبعد فشله المخزي رجع إلى الكرك، وقرّر الاحتفاء بعرس صهره أونفروا الرّابع دي تورون وإيزابيل أخت ملك القدس. وحين علم صلاح الدّين بالأمر وجد مناسبًا لتأديبه إلى الأبد، وخصوصًا أنّ الصّليبيّ كان يحتفل بالأشياء الّتي أخذها عنوة من التّجّار المسلمين، كما أنّ الكرك موقع ستراتيجي للتّجارة، وهو بهذا ينتقم من المجرم، ويزيل عقبة مقلقة عن طريقه. وقام بضرب الحصار على قلعة الكرك، وفيها جمهور كبير من النبلاء سيّدات وسادات، والمغنيين، والمهرجين، والموسيقيين، وكلّ من له إسهام في التفريح والابتهاج. استطاع المسلمون فتح مدخل الحصن. في هذا الوقت أرسلت إيتينيت دي ميلي العروس الصّبيّة شيئًا من وليمة العرس إلى صلاح الدّين الّذي كان يحاصر المكان، وأبلغته سلامها مع مبعوثيها مذكّرةً إيّاه بالزّمن السّالف أيّام طفولتها، وكيف كان يحملها بين ذراعيه وهي مع ذويها سجينة، وتأثّر صلاح الدّين بالغ الأثر بهذه الذّكرى، وسأل عن البرج الّذي يقيم فيه العروسان فدلّوه عليه، فأمر بالامتناع عن قصفه بأيّ حالٍ من الأحوال (قلعجي 1992، 305).

من مناقب صلاح الدّين كيفيّة تعامله مع الطّاعنين في السّنّ أثناء الحرب. فمثلاً لمّا تمّ فتح قلعة بُرْزَيْه، غنم ما فيها، وأسر جميع من كان فيها، وأحضر بين يدي السّلطان صاحب القلعة، وكان شيخًا كبيرا، فأُخِذَ هو وسبعة عشر نفرًا من أهله معًا، فمنّ عليهم، ورقّ لهم، وأرسلهم إلى صاحب أنطاكية وهو مسيحيّ أيضًا، لأنّهم كانوا يتعلّقون به ومن أهله (ابن شدّاد 1994، 145).

في مشهد آخر بعد أسر عدد من الصّليبيّين عند جسر الداعوق في بيروت، رأى السّلطان شيخًا طاعنًا في السّنّ أسيراً بيد المسلمين، وسأل عن بلاده وسبب مجيئه، فأجاب الشّيخ بأنّه جاء طمعًا للحج من بلاد بعيدة تحتاج عدّة أشهر حتّى تصل إليها، ولم يكن القتال في نيّته، فتمّ إطلاق سراحه مباشرة بأمر السّلطان، وقال له: ثمّ اذهب لقضاء ما تبقّى من أيّام عمرك بين أهلك. وأوصل أولادك هذه العلامات على إحساني. ثمّ أغمره بهدايا وأرسله إلى معسكر الصّليبيّين على حصان أهداه إليه (قلعجي 1992، 377).

ومن بين الأسرى آنذاك قائد القوّات الفرنسيّة وخازنها، فأكرمهما في خيمته، ثمّ أرسلهما إلى دمشق بعد معاملتهما كضيفين.

كما قيل في هذا البحث مرارا أنّ صلاح الدّين اضطرّ إلى القتل وإن كرهه في صدره، وكدليل على ذلك، لمّا طلب أحد صغار أولاده السّماح له بقطع رؤوس بعض الأسرى، فأجابه السّلطان: معاذ الله أن أسمح بفظاعة لا جدوى ورائها. لا أريد أن يتعوّد أولادي أن يتّخذوا من إراقة الدّم الإنساني لعبةً لهم.

وشهامة أخرى قدّمها صلاح الدّين أنّه أُعْلِمَ بأنّ لصوصًا كانوا ضمن جنوده دخلوا إلى خيام العدوّ واختطفوا طفلا عمره ثلاثة أشهر من يدي والدته، وكان الأمر أن يُعْرَضَ كلُّ ما يؤخَذُ على السّلطان، ثمّ يعطيهم، كانت الأمّ الثّكلى في حالةٍ يرثى لها طول اللّيل لفقدها طفلها. ولمّا وصل خبرها إلى ملوكهم، فقالوا (إنّ صلاح الدّين رحيم القلب، وقد أذّن لنا بالخروج، فاخرجي واطلبيه منه، فإنّه يردّه عليك) (شاندور 1993، 308). قال (ابن شدّاد 1994، 251-252): "فلقيته وهو راكبٌ وأنا في خدمته، وفي خدمته خلق عظيم، فبكت بكاءً شديدًا ومرغت وجهها في التّراب، فسأل عن قصّتها فأخبروه، فرقّ لها، ودمعت عينه، وأمر بإحضار الرّضيع، فوجدوه قد بيع في السّوق فارتدّه، وأمر بدفع ثمنه إلى المشتري وأخذوه منه. ولم يزل واقفًا حتّى أحضر الطّفل وسلّم إليها، فأخذته وبكتْ بكاءًا شديدًا، وضمّته إلى صدرها، والنّاس ينظرون إليها ويبكون، وأنا واقفٌ في جملتهم، فأرضعته ساعةً، ثمّ أمر بها فحملت على فرسٍ وألحقت بعسكرهم مع طفلها".

الملاحظ من كلام ابن شدّاد (1994، 252) أنّ الرّحمة كانت جزءًا من طبيعة السّلطان؛ إذ نقل من كلامه عن ملوكهم في حقّه قوله: (إنّ صلاح الدّين رحيم القلب). ودعا له في نهاية القصّة: "اللهمّ، إنّك خلقته رحيمًا، فارحمه رحمةً واسعةً من عندك يا ذا الجلال والإكرام".

3-6 أخلاق صلاح الدّين

واضحٌ من خلال من عاشوا مع صلاح الدّين أو تعاملوا معه في السّلم والحرب أنّه كان له صفات أخلاقية وتعامُلٌ متميّز ودُوِّنَتْ مواقفُه الإيجابيّة في المصادر، وجعل منه بطلاً تاريخيًّا بل وأسطورةً تجاوز مراتب الأبطال، وبهذا يتّضح أنّ تعامله نبع أساسًا من

أخلاقه وسلوكه في الحياة ونظرته للإنسانيّة وعمق فهمه لدين الإسلام، والتزامه به. وها هو عددٌ من صفاته الّتي زيَّنَتْهُ بزينة المواقف الجليلة.

كان صلاح الدّين الأيّوبي متعلّقًا بأخلاق الإسلام وسيرة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وصحابته والتّصوّف الإسلامي، وكان يمارس التّزكية على الدّوام، ومن هنا برزت منه صفات حميدة أبعدتْه عن الدّنيا ورغباتها وتوجّه بكلّ قواه العقليّة والجسديّة نحو الآخرة ومرضاة الله تعالى. ومن هذه الصّفات (التّقوى من تعظيمه لشعائر الله تعالى. وحسن الظّنّ بالله والاعتماد عليه والتدّبّر. والمواظبة على النّوافل وصلاة الجماعة). وهذه الصّفات تؤدّي إلى نتائج مثمرة، وهي: (الاستعلاءُ على شهوة المال، والعدلُ، والحلمُ، والمروءةُ والنّبلُ، والتّواضعُ)، وهي صفات لخّصها العلماء من عبادته لربّه، وتعاملِه مع أنصاره وأعدائه (بدليسي 2006، 109)، يشهد له ابن شدّاد فيما رآه منه بنفسه، سواء فيما يتعلّق بينه وبين ربّه سبحانه وتعالى، أو بينه وبين خلقه الله تعالى، فعن الأوّل، قال (ابن شدّاد 1994، 25-30): "كان رحمه الله حسن العقيدة، كثير الذّكر لله تعالى، شديد المواظبة على الصّلاة بالجماعة، وكان يواظب على السّنن والرّواتب، وكان له صلوات يصلّيها إذا استيقظ بوقتٍ في اللّيل، وإلاّ أتى بها قبل صلاة الصّبح. وأمّا الزّكاة، فإنّه مات ولم يحفظ ما تجب عليه به الزّكاة. وأمّا صدقة النّفل، فإنّها استنفذت جميع ما ملكه من الأموال. وأمّا صوم رمضان، فإنّه كان عليه منه فوائت، بسبب أمراضٍ تواترت عليه في رمضاناتٍ متعدّدة، وشرع رحمه الله في قضاء تلك الفوائت بالقدس في السّنة الّتي توفيّ فيها، وكان الطّبيب يلومه وهو لا يسمع، ويقول: لا أعلم ما يكون. فكأنّه كان ملهمًا ببراءة ذمّته رحمه الله، ولم يزل حتّى قضى ما كان عليه. وأمّا الحجّ فإنّه كان عازمًا عليه وناويًا له، سيّما في العام الّذي توفيّ فيه، فاعتاق عن ذلك بسبب ضيق الوقت، وخلوّ اليد عمّا يليق بأمثاله، فأخّره إلى العام المقبل، فقضى الله ما قضى. وكان يحبّ سماع القرآن العظيم، ويستقرئ حارسه في الليل وهو في برجه، الجزئين والثّلاثة والأربعة وهو يسمع. وكان خاشع القلب رقيقه، غزير الدّمعة، إذا سمع القرآن يخشع قلبه، وتدمع عينه في معظم أوقاته. وكان شديد الرّغبة في سماع الحديث. ويحبّ أن يقرأ الحديث بنفسه. وكان كثير التّعظيم لشعائر دين الله. وكان حسن الظّنّ بالله، كثير الاعتماد عليه، عظيم الإنابة عليه".

أمّا في تعامله رحمه الله مع النّاس، فيقول عنه (ابن شدّاد 1994، 34-35): "كان رحمه الله عادلاً رؤوفًا رحيمًا، ناصرًا للضّعيف على القويّ. ويفتح الباب للمتحاكمين حتّى يصل إليه كلّ أحدٍ من كبيرٍ وصغيرٍ، وعجوزٍ هرمةٍ وشيخٍ كبيرٍ. وكان يجلس مع الكاتب ساعةً، إمّا في اللّيل أو في النّهار، ويوقّع على كلّ قصّة بما يجريه الله على قلبه، ولم يردّ قاصدًا أبدًا، ولا منتحلًا ولا طالب حاجةٍ، وهو مع ذلك دائم الذّكر، والمواظبة على التّلاوة، ولقد كان رؤوفًا بالرّعيّة، ناصرًا للدّين، وما استغاث به أحدٌ إلاّ وقف وسمع قضيّته، وكشف ظلامته، واعتنى بقصّته".

ذكر هذه الصّفات الخاصّة للسّلطان والمتميّزة للدّلالة على أنّ سلوكه الإنساني كان مصدرُه فهمَه الصّحيح للدّين القويم، وتبعيّتَه لرسالة (الرّحمة للعالمين)، والّذي يقوّي حقيقة هذه الصّفات هو شهادة المعاصرين له من المسلمين وغيرهم، فهذا ابن شدّاد يَعُدّ حركاتِه وسكناتِه في حضره وسفره، سلمه وجهاده، يومه وليله، يصوّر لك شهامة رجلٍ عارفٍ بالله ملتزمٍ بأوامره جملةً وتفصيلاً، تصوّرًا دقيقًا كأنّه واقفٌ، والحال كذلك في شهادة أعدائه والّذي سبقت كلماتهم ضمن هذا البحث.

4- تعامل صلاح الدّين في ميزان الإسلام

4-1 حرّيّة التّديّن في ميزان الإسلام

من الأهداف الّتي سعى إليها صلاح الدّين تأمين التّديّن للمسلمين وغيرهم من أداء الحجّ للمسلمين إلى مكّة المكرّمة والمدينة المنوّرة، وللمسيحيّين إلى أراضيهم المقدّسة المنتشرة في الشّام، وكذلك إتاحة حرّيّة العبادة وممارسة الشّعائر الدّينيّة لجميع الطوائف، وليس المقصود هنا حرّيّة الدّين، فهو موضوعٌ آخر، وتأمين حريّة التّديّن يعبرّ عن مدى التزام صلاح الدّين بالإسلام وصدقه في ذلك؛ فموقفه إسلاميٌّ متطابقٌ مع الإسلام نظرًا وتطبيقًا، وهو مذكورٌ إجمالاً فيما يأتي:

4-1-1 حرّيّة التّديّن في الإطار النّظري

توجد نصوص كثيرة في القرآن الكريم والسّنّة النّبويّة تؤكّد على السّماح لأهل الأديان في حرّيّة التّديّن وممارسة شعائرهم الدّينيّة، وفيما يأتي تصنيف بعض الآيات:

4-1-1-1 عدم الإكراه وعلاقته بحرّيّة التّديّن

هناك آياتٌ قرآنيّة تنهى عن إكراه النّاس على الإسلام، وعدم إجبارهم على ترك ما يدينون، وهذا في حدّ ذاته تعبير عن منحهم حريّة تديّنهم في الإطار المسموح وهو عدم التّجاوز على الآخرين، كما هو الحال لجميع الطّوائف بمن فيهم المسلمون، فأيّ منع

لأداء واجبات ديانتهم وأيّ إعاقة لمناسباتهم الخاصّة إكراه على المقابل، قال تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: 256]، وهذه الآية واضحةٌ في حرّيّة التّديّن؛ لأنّها نزلت في أولاد الأنصار الّذين تهوّدوا قبل الإسلام، ولمّا أراد النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم إجلاء بني النّضير إثر خيانتهم، وفيهم هؤلاء العرب المتهوّدون، أراد أهلهم منعهم من الإجلاء وإكراههم على ترك اليهوديّة وقبول الإسلام، أجاب الأولاد: "لنَذْهَبَنَّ معهم، ولَندِينَنَّ بدينِهم"، فنزلت الآية الكريمة، وقال الرّسول صلّى الله عليه وسلّم: "قد خُيِّرَ أصحابُكم، فإن اختارُوكم فهم منكم، وإن اختاروهم فهم منهم" (الطبري 2001، 548/4-549).

ليس في آيات القرآن الحكيم ما يسمح بإكراه النّاس على الدّخول في الإسلام، والنّهي باقٍ عن الإكراه وممتنع في كلّ وقتٍ ومكانٍ في السّلم وفي الحرب، والقتالُ إنّما هو لِمَنْ قاتَلَنَا واعتدى علينا، كما سيتوضّح أكثر فيما يأتي. (جمعة 2018، 162).

4-1-1-2 فضيلة الإحسان إلى غير المسلمين

آيات قرآنيّة تتعلّق بالإحسان إلى غير المسلمين بتعبيراتٍ متعدّدةٍ يجمعها الإحسانُ إليهم، مثل (البرّ، القسط، الجدال بالّتي هي أحسن، ...).

قال تعالى: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ [الممتحنة: 8]. تبيّنُ الآية أنّ غير المسلمين منقسمون إلى المحاربين الّذين يقاتلون المسلمين، ويحاولون إخراجهم من بلادهم، ويتدخّلون في شؤونهم سلبًا وعدوانًا، فموالاتهم والبرّ إليهم حرامٌ. والقسم الآخر هم على النّقيض من هؤلاء، لا يريدون السّوء للمؤمنين لا بالقتال ولا بالإخراج من ديارهم، وهم المسمّون في الشّريعة الإسلامية بأهل العهد، والمؤمنون يعاملونهم بالحسنى، والتّصدّق عليهم، ونفعهم إن كانوا أقارب أو غير أقارب طالما أنّهم لا يعتدّون على المسلمين ولا يؤلبون الأعداء عليهم. (هلال، د، ت، 7178/14-7179).

الآية جائت عامّة لكلّ مَنْ فَضّلَ الأمان والعيش مع المسلمين دون النّظر إلى دينه، ويعضده ما قيل من أنّها نزلت في خزاعة القبيلة المشركة؛ لأنّ السّماحة بالبرّ والإحسان إلى المشركين المسالمين تكون لأهل الكتاب بالطّريق الأولى، وهذا ما أيّده إمام المفسّرين الطّبري رحمه الله، فيردّ على القائلين بتخصيص الآية بفئة معيّنة أو أهل دينٍ بعينه، والله سبحانه عمّ جميعَ أصنافِ الملل والأديانِ، ممَّن كانت صفتُه عدمَ قتالِ المسلمين، وإخراجِهم من ديارهم، فلم يَخْصُصْ به بعضًا دونَ بعضٍ (الطبري 2001، 574/22). وعندما يكون اللّفظ عامًّا فلا داعي إلى تخصيصه بفئةٍ محدّدة، والقاعدة التّفسيريّة تقول: (العبرة بعموم اللّفظ)، واللفظ عامّ (السّبت، 2008، 593)، ومن هنا فالمؤمن مأمور بالقسط والقضاء بالبرّ والإحسان لكلّ المتّصفين بالصّفات المذكورة (القاسمي 1418هـ، 81/17).

لن يبقى معنًى للبرّ والإحسان إلى غير المسلمين إذا مُنِعُوا من ممارسة دينهم، والقيام بشعائره بحريّة ودون الإعاقة والمنع، سيّما في قوله تعالى ﴿أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ﴾ يتحدّث عن البرّ والصّلة والإحسان، لا عن العدل، فهو واجب فيِمَنْ قاتل وفيْمَن لم يقاتل (القرطبي 1964، 59/18).

التّعبير عن هذا التّعامل بالفضيلة استنباطٌ من ألفاظ القرآن كـ(البرّ) بمعنى "التوسع في فعل الخير" (الأصفهانى 1412هـ، 114)، و(الإحسان) بمعنى الإنعام على الغير، وهو أعمّ من الإنعام؛ لأنّه يشمل الإنعام إلى الغير والإحسان في عمله، وهو فوق العدل أيضًا؛ لأنّ العدل هو أن يعطي ما عليه، ويأخذ أقلّ مما له، والإحسان أن يعطي أكثر مما عليه، ويأخذ أقلّ ممّا له (الأصفهانى 1412هـ، 236) ولهذا تحرّي العدل واجب، وتحرّي الإحسان ندب وتطوّع، وهذا يعني أنّ الإحسان فضيلة فوق أداء الواجب، كمن يصلّي النّوافل بعد الفرائض، وكمن يتصدّق بعد دفع الزّكاة (الحلبي 1996، 412/1)، وفي نهاية الآية يحبّب البارئ سبحانه وتعالى الإحسان في قلوب أهل الإيمان، ويقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ هنا تأكّد التّحبيب بأداة التّوكيد والجملة الإسميّة وتعميم العدل والإقساط بحذف المفعول به، أي يُحِبُّ كُلَّ مُقْسِطٍ، فَيَدْخُلُ الَّذِينَ يُقْسِطُونَ لِلَّذِينَ خالَفُوهم في الدِّينِ إذا كانُوا مَعَ المُخالَفَةِ مُحْسِنِينَ مُعامَلَتَهم (ابن عاشور 1984، 153/28). وكلّ هذا تأكيد على فضيلة الإحسان.

أمّا قوله تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [النحل: 125]. فيذهب إلى أبعد من هذا، ويرسم خريطة الدّعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة مع المخالفين باختيار أحسن الكلمات والأساليب. وأين الحسن في منعهم من التّديّن وممارسة شعائر دينهم، وكيف تَنْفُذُ كلماتُ الإسلام إلى قلوبهم وضاقتْ عليهم الأرضُ بما رحبتْ في سدّ الأبواب عليهم بحقّ ممارسة العبادة والتّديّن.

4-1-1-3 حماية المقدّسات

ممّا يدلّ على حرّيّة التّديّن وممارسة العبادة لغير المسلمين حماية أماكن عبادتهم من المسّ بها، قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ(٣٩) ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ(٤٠) ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ [الحج: 39-41].

الآية الكريمة تشريع للمؤمنين المظلومين بالجهاد في وجه الظّالمين الّذين ظلموا المؤمنين وأخرجوهم من ديارهم بغير حقٍّ، لكنّها لن تحصر المهمّة الأساسيّة في الدّفاع عن المؤمنين، بل توجب على المؤمنين أن يدافعوا عن مقدّسات جميع المواطنين، ويتيحوا لهم حرّيّة العبادة. وسياق الآية صريح في هذا؛ لأنّها عقّبت الحديث عن دفع المعتدين عن الأماكن المقدّسة بعد السّماح بالجهاد، واختتمت القضيّة بنصر الله تعالى إيّاهم. والمفسّرون أطالوا الحديث في الأماكن المذكورة في الآية فَالصَّوَامِعُ لِلرُّهْبَانِ، وَالْبِيَعُ لِلنَّصَارَى، وَالصَّلَوَاتُ لِلْيَهُودِ، وَالْمَسَاجِدُ لِلْمُسْلِمِينَ، وقيل الصَّلَوَاتُ مَسَاجِدُ الصَّابِئِينَ، وقيل الصّلوات عامّة للجميع، قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: وَالْأَظْهَرُ أَنَّهَا قُصِدَ بِهَا الْمُبَالَغَةُ فِي ذِكْرِ الْمُتَعَبَّدَاتِ (ابن عطية 1422هـ، 125/4)، فالآية تستوجب إبقاء أهل الأديان على أماكن عبادتهم والحرّيّة في أدائها داخلها، ولهذا قرّر الإسلام حماية أماكن العبادة لغير المسلمين والدّفاع عنها، ولولاها فلا معنى للدّفاع عن أماكنهم.

4-1-1-4 احترام المقدّسات

من الوسائل الّتي اتّخذها الإسلام سبيلاً إلى حرّية التّديّن وممارسة العبادة هي احترام مقدّسات غير المسلمين من أنبيائهم وكتبهم المقدّسة وأماكن عبادتهم، بل جعل الإيمان بأنبيائهم وكتبهم السّماويّة جزءًا من الإيمان بالإسلام، من ذلك قوله تعالى في الأنبياء والمرسلين: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [البقرة: 285]، ومنهم مَنْ ذُكِرَتْ أسماؤُهم في القرآن الكريم صراحةً، كقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا(١٦٣) وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: 163-164]، ومن هذا المنطلق يصّلي المسلمون على جميع الأنبياء والمرسلين ويسلّمون عليهم، وهكذا يعظّمون التّوراة الكتاب المنزّل على موسى عليه السّلام والإنجيل المنزّل على عيسى، وكذا الزّبور والّصحف، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ أَن يُفۡتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: 37].

استنادًا إلى الآيات القرآنيّة والأوامرِ النّبويّةِ خاصّة كان احترام الإسلام والمسلمين لكلّ مقدّسات أصحاب المقدّسات الدّينيّة، ولاسيّما أهل الكتاب الّذي يجمعهم مصدر كتبهم المقدّسة ورسالة أنبيائهم. وفي آية ينهى سبحانه وتعالى المؤمنين من الإساءة إلى الأصنام، فالمطلوب هو المناقشة العلميّة والعقليّة بعيدة عن الإساءة وكلمات جارحة تخرج الكلام من دائرة الدّعوة إلى الإساءة والإهانة لأتباعها، قال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرۡجِعُهُمۡ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأنعام: 108]. فحينما يسبّ المؤمنون آلهة المشركين، فإنّهم يبادلون السّبّ في ذات الله تعالى، وقال (القرطبي 1964، 61/7): "قَالَ الْعُلَمَاءُ: حُكْمُهَا بَاقٍ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى كُلِّ حَالٍ، فَمَتَى كَانَ الْكَافِرُ فِي مَنَعَةٍ وَخِيفَ أَنْ يَسُبَّ الْإِسْلَامَ أَوِ النَّبِيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوِ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، فَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَسُبَّ صُلْبَانَهُمْ وَلَا دِينَهُمْ وَلَا كَنَائِسَهُمْ، وَلَا يَتَعَرَّضُ إِلَى مَا يُؤَدِّي إِلَى ذَلِكَ، لِأَنَّهُ بِمَنْزِلَةِ الْبَعْثِ عَلَى الْمَعْصِيَةِ".

نتيجة للسّماحة الإسلاميّة المبنيّة على الإيمان الإسلامي، تَجَاوَزَ احترامُ الإسلام والمسلمين إلى جميع المقدّسات من الأديان السّماويّة والوضعيّة، فاحترموا الخصوصيّات الدّينيّة ودور العبادة للجميع، وكان أوّل اتّصال بين المسلمين وأديان غير اليهوديّة والنّصرانيّة امتحانًا لصدق مدى ترسّخ هذه العقيدة في الإسلام، وقد عالج الرّسول صلّى الله عليه وسلّم القضيّة حينما أخذ الجزية منهم وإن كانوا خارج أهل الكتاب، واقتدى به الخليفة الثّاني عمر بن الخّطاب رضي الله عنه، فلم يأخذ منهم الجزية حتّى "شَهِدَ عَبْد الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ أن رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم أَخَذَها مِنْ مَجُوسِ هَجَرَ" (البخاري 1993، 1151/3، (٢٩٨٧)). والدّليل على أنّ المجوس ليسوا من أهل الكتاب قولُه صلّى الله عليه وسلّم: "سُنّوا بهم سنّة أهل الكتاب" (أنس 1985، 1/ ٢٧٨، (42)) و (الشافعي 1400هـ، 209) و (الصنعاني 2013، 170/6، (١٠٨٦٨)) و (مر. الشوكاني 1427هـ، 389/14، (٣٤٧٤)).

صار احترام المقدّسات الدّينيّة قاعدةً إسلاميّة طبّقها المسلمون مع أهل جميع الدّيانات السّماويّة والوضعيّة، وعاش في عالم الإسلام وحضارته اليهود والنّصارى والمجوس والبوذيّون والصّابئة والهندوس والإيزيديّون وغيرهم، يتعبّدون في معابدهم، الّتي احترمها وصانها وقدّسها الإسلام والمسلمون (عمارة 2005، 10). ومن الممكن اعتبار هذا تفصيلا لما قاله القرطبي سابقًا من أنّ حكم الآية باقٍ متى خيف سبّ الكافر الإسلامَ؛ إذ كان الإسلام في ذروة القوّة مع جميع الأديان واستمرّ احترام شتّى المقدّسات، وبقي التّعايش سالمًا، وهذا يدلّ على أنّ ما ورد في الآية قيدٌ واقعيّ من أنّ الكفّار يبادلون المسلمين بالسّبّ نفسه، وليس احترازًا للسّماح بذلك عند عدم الخوف، لأنّ الخوف لن يزول مادامت العقائد باقية، كما أنّ السّلم المنشود في الإسلام والأمن العامّ معرّضان للخطر مع الإساءة والإهانة لمقدّسات الأديان. والإسلام لم يدعُ إلى السّبّ والإهانة والإساءة، ولا يليق خُلُقُ الإساءة بأصحاب دينٍ شعارُه دائمًا ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ [الأنبياء: 24]، و﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4].

نجمت خصوصيّة أخرى عن هذه السّماحة الإسلاميّة تجاه المقدّسات، وهي احترام الشّرائع والسّماح لأهلهم للتّحكيم بها فيما بينهم، قال تعالى: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗا﴾ [المائدة: 48]. أي: "أن الله جعل لكلّ مِلّةٍ شريعة ومنهاجًا، فللتوْراةِ شريعةٌ، وللإنْجيلِ شَريعةٌ، وللقرآنِ شريعةٌ" (الطبري 2001، 493/8-494)، فالحديث عن شريعة الكتابين في ذاته احترام للمقدّسات، والقرآن مهيمن عليهما. ويقول عن الحكم بالتّوراة: ﴿وَكَيۡفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوۡرَىٰةُ فِيهَا حُكۡمُ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: 43]. واحترام حكم التّوراة واضح في الآية، ولهذا نجد الإمام فخر الدّين الرّازي عندما فسّر هذه الآية اعترض على جماعة من الحنفيّة واحتجاجهم بهذه الآية على أنَّ حُكْمَ التَّوْراةِ وشَرائعَ مَن قَبْلَنا لازِمٌ عَلَيْنا ما لَمْ يُنْسَخْ؛ ويضعّفه بأنّه "لَوْ كانَ كَذَلِكَ لَكانَ حُكْمُ التَّوْراةِ كَحُكْمِ القُرْآنِ في وُجُوبِ طَلَبِ الحُكْمِ مِنهُ، لَكِنَّ الشَّرْعَ نَهى عَنِ النَّظَرِ فِيها"، لكنّه مع هذا لم يخرج عن كون الآية احترامًا للتّوراة؛ إذ قال: "بَلِ المُرادُ هَذا الأمْرُ الخاصُّ وهو الرَّجْمُ؛ لِأنَّهم طَلَبُوا الرُّخْصَةَ بِالتَّحْكِيمِ"، ويعني هذا احترام طلبهم التّحكيم إلى التّوراة ولو كان لها الأمر خاصّة (الرازي 1420هـ، 362/11) وقال تعالى عن الإنجيل: ﴿وَلۡيَحۡكُمۡ أَهۡلُ ٱلۡإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: 47]. فأمر الله سبحانه وتعالى الرّهبان والقسّيسين من النّصارى أن يحكموا بالإنجيل لما انحرفوا فيه من أمر بنوّة المسيح لله تعالى، كما أمر اليهود بالتّوراة في أمر بنوّة عزير، والجانبان عدلا عن الحقّ وكفرا بحقيقة الكتابين. (البغوي 1997، 57/2) أو أمر النّصارى "بأنْ يَحْكُمُوا ويَعْمَلُوا بِما فِي الإنجيل مِنَ الأُمُورِ الَّتِي مِن جُمْلَتِها دَلائِلُ رِسالَتِهِ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ، وشَواهِدُ نُبُوَّتِهِ، وما قَرَّرَتْهُ الشَّرِيعَةُ الشَّرِيفَةُ مِن أحْكامِهِ، دون الأحكام المنسوخة" (العمادي، د، ت، ٤٣/3).

5-1-1-4 السّلم

من مقوّمات احترام المقدّسات في الإسلام هو التّركيز على السّلم وتثبيته، ووضع الحرب في خانة الحالات غير الطّبيعيّة، وهذه قضيّة تتعلّق بما هو الأصل في التّعامل مع غير المسلمين، هل هو الحرب أو السّلم، لكنّ المتتبّع إلى نصوص القرآن الكريم والسّنّة النبويّة يجد أنّ الأصل هو السّلم، وليس هناك نصّ يبعث على القتال ابتداءً؛ لأنّ الإذن بالقتال جاء لردّ العدوان والظّلم، أمّا غير ذلك فلم يرد فيه نصّ مؤذن بالحرب؛ لأنّ الإذن غير وارد في موقع فرض الإسلام، والدّين حالة قلبية قبل كلّ شيء، ولا يمكن فرضه بالقوّة، وكذلك نفى الإكراه في الدّين، وذلك في عديدٍ من آيات الكتاب الحكيم، وفي مقدّمتها قوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: 256] (أبو زهرة، 1961، 12).

في المقابل، الآيات المؤذنة بالقتال جميعها نزلت لدفع الاعتداء والظّلم والعدوان، منها قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: 39]. فإذن القتال جاء ردًّا على الظّلم والاعتداء، ومنها قوله تعالى: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ(٨) إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الممتحنة: 8-9]. نهت الآية المسلمين من البرّ إلى غير المسلمين الّذين قاتلوهم وأخرجوهم بغير حقّ.

في حال الاعتداء لابدّ أن يكون القتال آخر ما يتوسّل إليه المسلمون، ومهما أمكن ردّ العدوان بالعدول عن الحرب والقتال فهو الأفضل، كما قال تعالى: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ(١٢٦) وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ﴾ [النحل: 126-127] (أبو زهرة، 1961، 18).

بقي هنا توضيح مسألة أخلاقيّة ركّز عليها القرآن، وهي الالتزام بالأخلاق أثناء الحرب والقتال، مثلاً في قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 194]، أذّن الله بعقابِ مَنْ يعتدي على المسلمين، لكن لم يأت الإذن مطلقًا، بل عقّب سبحانه وتعالى الإذن بأمره سبحانه المؤمنين بتقوى الله تعالى، وأمر التّقوى

هنا مرتبط مباشرة بقضيّة ردّ الاعتداء، كأنّه سبحانه يقول: أيّها المؤمنون اتّقوا الله وخافوه "في الانْتِصارِ لِأَنْفُسِكم وتَرْكِ الِاعْتِداءِ بِما لَمْ يُرَخِّصْ لَكم فِيهِ" (الآلوسي 1415هـ، 474/1).

استنبط الفقهاء من كون السّلم هو الأصل في الإسلام، أنّ مقصود الجهاد ليس القتال أو قتل الكفّار، وإنّما الهداية، ولهذا اعتبروا وجوب وسائل الجهاد، كي يكون المسلمون في الاستعداد الدّائم، وصرّح فقهاء الشّافعيّة بذلك، منهم الخطيب (الشربيني 1994، 9/6) قال: "وَوُجُوبُ الْجِهَادِ وُجُوبُ الْوَسَائِلِ لَا الْمَقَاصِدِ، إذَا الْمَقْصُودُ بِالْقِتَالِ إنَّمَا هُوَ الْهِدَايَةُ وَمَا سِوَاهَا مِنْ الشَّهَادَةِ، وَأَمَّا قَتْلُ الْكُفَّارِ فَلَيْسَ بِمَقْصُودٍ حَتَّى لَوْ أَمْكَنَ الْهِدَايَةَ بِإِقَامَةِ الدَّلِيلِ بِغَيْرِ جِهَادٍ كَانَ أَوْلَى مِنْ الْجِهَادِ". وبناء على هذا، الإسلام يفضّل سلوك السّلام بصفة أصيلة، كلّما أمكن ذلك، أمّا القتال فهو حالة اضطراريّة بعد سدّ الأبواب وانغلاق الحلول (الزحيلي 1998، 89-90).

هناك آيات أخرى صريحة في تفضيل السّلم في جميع الأوقات، كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 64]. وقوله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ [النساء: 90]، أي إذا اعْتَزَلُوا قِتَالَكُمْ، فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَمَنِ اتَّصَلَ بِهِمْ، وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ والصُّلْحَ فَانْقَادُوا وَاسْتَسْلَمُوا فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ طَرِيقًا بِالْقَتْلِ وَالْقِتَالِ (البغوي 1997، 261/2).

إذا كان السّلم هو الأصلَ في التّعايش مع الآخرين فلابدّ أن ينعكس السّلم على جميع جوانب الحياة، وحينما تساء المقدّسات وتنجرح الشّعور فلا يبقى معنًى للسّلم، كما أنّ الإساءة طريقة ممهّدة تستغلّ مع أدنى فرصة لهدم البناء وتعكير صفوة السّلم، ومن هنا لابدّ من احترام المقدّسات حتّى يبقى ولاء المواطنين لدولتهم مع اختلاف الدّيانات والمذاهب والقوميّات.

4-2 حرّيّة التّديّن في الإطار التّطبيقي

لم تبق هذه الحقائق القرآنيّة حبيسة نظريّاتٍ مدوّنة في الكتب، بل طبّقها المسلمون في واقعهم، وقد مرّت أمثلة كثيرة ضمن توضيحات الفقرة السّابقة حول الآيات القرآنية، ومن أوضح الحقائق الّتي لا تقبل اللّفّ والدّوران هو واقع العالم الإسلامي بدءًا من عصر الرّسالة إلى أفول الخلافة الإسلاميّة، الّذي لم يخلُ يومًا من الأيّام من التّنوّع بين مختلف الأديان والمذاهب والأطياف والأقوام وكان الإسلام في ذروة القوّة وله تمام السّلطة، لكنّه احتفظ بالتّنوع وأبقى الواقع المتعايش. ووجودُ صراعات ونزاعات بين الطّوائف لا يَنْفِي حقيقةَ العالم الإسلامي، فَمِنْ طَبْعِ الإنسان أنْ يتصارعوا ويتنازعوا فيما بينهم ولو كانوا من قوميّة واحدةٍ أو دين واحدٍ.

علاوةً على الأمثلة السّابقة، حفل التّاريخ الإسلامي بشواهِدَ كثيرة حول تطبيق هذه الحقائق في حياة المسلمين، من أشهرها (صحيفة المدينة)، و(معاهدة نجران)، و(تعامل أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب مع أهل إيلياء)، و(تعامله مع غير أهل الكتاب تنفيذا لتعليمات الرّسول الأكرم صلّى الله عليه وسلّم من أن يُسَنَّ بهم سنّة أهل الكتاب). وفيما يأتي نماذج لكلّ واحد من الأمثلة الأربعة.

4-2-1 صحيفة المدينة

جاء في وثيقة المدينة عن الحرّيّة الدّينيّة للجميع: "لِلْيَهُودِ دِينُهُمْ، وَلِلْمُؤْمِنِينَ دِينُهُمْ، إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَأَثِمَ، فَإِنَّهُ لَا يُوتِغُ إِلَّا نَفْسَهُ وَأَهْلَ بَيْتِهِ" (أبو عُبيد، د، ت، 263). وفيها ما ينصّ على أنّ الجماعة كلّها مسؤولة عن محاصرة الظّالم ومحاكمته: "وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُتَّقِينَ عَلَى مَنْ بَغَى مِنْهُمْ، أَوِ ابْتَغَى دَسِيعَةَ ظُلْمٍ أَوْ إِثْمٍ أَوْ عُدْوَانٍ أَوْ فَسَادٍ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَنَّ أَيْدِيَهُمْ عَلَيْهِمِ جَمِيعِهِمْ وَلَوْ كَانَ وَلَدَ أَحَدِهِمْ" (ابن زنجويه 1986، 466/2). وفيها أيضًا ما يوجب النّصرة على الطّرفين: "وَإِنَّ بَيْنَهُمُ النَّصْرُ عَلَى مَنْ حَارَبَ أَهْلَ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ وَأَنَّ بَيْنَهُمُ النَّصِيحَةَ وَالنُّصْرَ لِلْمَظْلُومِ، وَأَنَّ الْمَدِينَةَ جَوْفُهَا حَرَمٌ لِأَهْلِ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ، وَأَنَّهُ مَا كَانَ بَيْنَ أَهْلِ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ مِنْ حَدَثٍ يُخِيفُ فَسَادُهُ فَإِنَّ أَمْرَهُ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ" (أبو عُبيد، د، ت، 260).

4-2-2 معاهدة نجران

عندما جاء رُسُلُ نَصَارَى نجران إلى المدينة لِيُفاوِضُوا النّبيَّ (صلّى الله عليه وسلّم) وكانوا في مسجده، كما رواه (البيهقي، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة 1988، 382/5): "لَمَّا قَدِمَ وَفْدُ نَجْرَانَ عَلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم دَخَلُوا عَلَيْهِ مَسْجِدَهُ بَعْدَ الْعَصْرِ، فَحَانَتْ صَلَاتُهُمْ، فَقَامُوا يُصَلُّونَ فِي مَسْجِدِهِ فَأَرَادَ النَّاسُ مَنَعَهُمْ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: دَعُوهُمْ، فَاسْتَقْبَلُوا الْمَشْرِقَ فَصَلُّوا صَلَاتَهُمْ".

ثمّ عقد معهم معاهدة ضامنة لجميع الحقوق، جاء فيها: "ولنَجْرَانَ وَحاشِيَتِهِمْ جِوَارُ اللهِ وذِمّةُ مُحَمّدٍ النّبيّ رَسول الله عَلى أَنْفُسِهِمْ وَمِلّتِهِمْ وَأَرْضِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَغَائِبِهِمْ وَشاهِدِهِمْ وَبِيَعِهِمْ وَصَلَوَاتِهِمْ لا يُغَيّرُوا أَسْقُفًا عَنْ أَسْقُفِيّتِهِ ولا راهِبًا عن رَهْبَانِيّتِهِ ولا وَاقِفًا عَنْ وَقْفَانِيّتِهِ وكُلّ ما تَحْتَ أَيْدِيهِمْ مِن قَلِيلٍ أو كَثِيرٍ" (ابن سعد 2001، 249/1).

4-2-3 تعامل أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب مع أهل إيلياء

قام أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب رضي الله عنه بتطبيق وصايا القرآن والسّنّة حينما عاهد نصارى إيلياء، "فأعطاهم أماناً لأنفُسِهم وأموالِهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملّتها"، وتعهّد بحماية معابدهم وجميع مقدّساتهم بما فيها الصّليب المرفوض كلّيًّا، وذلك عندما نصّ على "أنّه لا تُسْكَنُ كنائسُهم ولا تُهْدَمُ، ولا يُنْقَصُ منها ولا من حيِّزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم، ولا يُكرهون على دينهم، ولا يضارّ أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود".

في جزءٍ خاصٍّ من المعاهدة كأنّك تشاهد صلاح الدّين الأيّوبي يحاكي الخليفة العادل عمر بن الخطّاب قولا وعملاً، وذلك حينما خيّر سكّان إيلياء بين البقاء مع التمتّع بجميع حقوقهم مثل المسلمين، وبين المغادرة مع كامل ممتلكاتهم، فيقول: "فمن خرج منهم فإنّه آمن على نفسه وماله حتّى يَبْلُغُوا أمنهم. ومن أقام منهم فهو آمن، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية. ومن أحبّ من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الرّوم ويخلّي بِيَعهم وصلبهم، فإنّهم آمنون على أنفسهم وعلى بِيَعهم وصلبهم حتى يبلغوا أمنهم. فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية. ومن شاء سار مع الروم. ومن شاء رجع إلى أهله، فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم. وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين، إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية" (الطبري ١٩٦٧، 609/3).

4-2-4 التعامل مع غير أهل الكتاب

سبق الحديث عن تعامل الخليفة عمر بن الخّطاب رضي الله عنه مع المجوس بالاستناد إلى تعامل الرّسول مع مشركي هجر، وقد فصّل القاضي (أبو يوسف 2009، 81) في حكم العجم سواء أهل الكتاب أو غيرهم، بقوله: "أَمَّا الْعَجَمُ فَتُقْبَلُ الْجِزْيَةُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْهُمْ وَالْمُشْرِكِينَ وَعَبَدَةِ الأَوْثَانِ وَالنِّيرَانِ مِنَ الرِّجَالِ مِنْهُمْ، وَقَدْ أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم الْجِزْيَةَ مِنْ مَجُوسِ أَهْلِ هَجَرَ وَالْمَجُوس وَأهل شِرْكٍ وَلَيْسُوا بِأَهْلِ كِتَابٍ".

تأسّست حريّة التّديّن في العالم الإسلامي على هذا البناء الإسلامي الّذي فتح صدره لغير المسلمين أن يعيشوا معهم في جوّ حرّ متسامح متمتّعين بحرّية العبادة، وكان أوّل صدام المسلمين مع مَنْ هم خارجَ دائرة اليهود والنّصارى وغير العرب أوّل امتحانٍ لأوّل تجربة في السّياسة الشّرعية، وقد خرج منها الخليفة الثّاني عمر بن الخطّاب رضي الله عنه بنجاح، وذلك عندما قبلهم مواطنين في دولة الإسلام وسنّ بهم سنّة أهل الكتاب. ونتيجة لذلك وجد غيرُ المسلمين من أهل الكتاب وغيرهم حرّيّتهم في ممارسة عبادتهم، حتّى وصل الأمر بقائد من قادة الخليفة المعتصم بالله العبّاسي، قام بجلد إمامٍ ومؤذّنٍ لاشتراكهما في هدم معبدٍ من معابد المجوس، وبنوا بحجارته مسجدًا للمسلمين (النعمة 2020، 209).

كما صدر منشور من الدّولة العبّاسيّة كتب للصّابئين عن أمير المؤمنين، أمر فيه بصيانتهم وحراستهم والذّبّ عن حريمهم ورفع الظّلم عنهم ونحو ذلك. واعترف للمجوس بأنّهم أهل ذمّة، إلى جانب اليهود والنّصارى، وكان لهم، كاليهود والنّصارى، رئيسٌ يمثّلهم في قصر الخلافة وعند الحكومة، ووقعت فتنة عظيمة بينهم وبين عامّة مسلمي شيراز، ونُهِبَتْ دور المجوس، وضُربوا، فسمع عضد الدّولة الخبر وجمع كلّ من له أَثَرٌ في ذلك، وبالغ في تأديبهم وزجرهم. وكانت مدينة شيراز تتزيّن في أعيادهم (ميتز 2008، 76/1 و85).

هكذا بقي العالم الإسلامي متزيّنًا بمختلف الأديان والمذاهب والقوميات، ولم يؤدّ جور بعض حكّام المسلمين إلى زرع حقد وكراهيّة ينهي التّعايش والتّكاتف بين المسلمين وغيرهم.

4-3 التّعامل مع الأسرى في ميزان الإسلام

سبق الحديث عن الإذن بالقتال ردًّا للعدوان والاعتداء بأوسع المعاني، وإذا جاز القتال فيجوز الأسر، وهو من تبعات القتال ونتائجه، وكان ممّا لفت انتباه الدّارسين تجاه صلاح الدّين في تعامله مع غير المسلمين هو تعامله الفضيل مع أسرى الحرب، والبحث هنا عن أصالة هذه الصّفة في الإسلام، وذلك على شقّين: أوّلاً: التّعامل مع الأسرى وقت الأسر والسّجن، وثانيًا: مصير الأسرى في الإسلام.

4-3-1 التّعامل مع الأسرى وقت الأسر

تأسّست قاعدة عامّة في التّعامل مع الأسرى، وهذه القاعدة في أصلها حديث نبويّ، قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "اسْتَوْصُوا بِالْأُسَارَى خَيْرًا" (الطبراني 2006، ٣٩٣/22، (977)). وانطلاقًا من هذا الحديث الشّريف على المسلمين أن يتعاملوا مع الأسرى بالخير.

من التّعامل الحسن مع الأسرى تقديم الحاجات الأساسيّة من طعامٍ وشرابٍ ومسكنٍ وكسوةٍ (جواد 2005، 27). كان النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم يوصي أصحابه بإطعام الأسرى وسقيهم، وقد مدح الله سبحانه وتعالى القائمين بإطعام الأسرى بقوله: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: 8]. وهناك أمثلة عديدة في تعامل إطعام النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم الأسرى وأمْرِهِ أصحابَه بإطعامهم، منها ما قَالَه أَبُو عَزِيزٍ أَخو مُصْعب بْنُ عُمير: "كُنْتُ فِي رَهط مِنْ الْأَنْصَارِ حِينَ أَقْبَلُوا بِي مِنْ بَدْرٍ، فَكَانُوا إِذَا قدَّموا غَدَاءَهُمْ وَعَشَاءَهُمْ خَصُّونِي بِالْخُبْزِ، وَأَكَلُوا التَّمْرَ، لِوَصِيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم إِيَّاهُمْ بِنَا، مَا تَقَعُ فِي يَدِ رَجُلٍ مِنْهُمْ كِسْرَةُ خُبْزٍ إِلَّا نَفَحَنِي بِهَا. قَالَ: فَأَسْتَحْيِيَ فَأَرُدُّهَا عَلَى أَحَدِهِمْ، فَيَرُدُّهَا عليَّ ما يَمَسُّهَا" (المعافري 1955، 209/2). ومنها، "قَالَ أَبُو الْعَاصِ بْنُ الرَّبِيعِ: كُنْت مَعَ رَهْطٍ مِنْ الْأَنْصَارِ جَزَاهُمْ اللهُ خَيْرًا، كُنَّا إذَا تَعَشَّيْنَا أَوْ تَغَدَّيْنَا آثَرُونِي بِالْخُبْزِ وَأَكَلُوا التَّمْرَ، وَالْخُبْزُ مَعَهُمْ قَلِيلٌ وَالتَّمْرُ زَادُهُمْ، حَتَّى إنّ الرَّجُلَ لَتَقَعُ فِي يَدِهِ الْكِسْرَةُ فَيَدْفَعُهَا إلَيَّ" (الواقدي 1989، 1/ 119).

من التّعامل الحسن أيضًا كسوة الأسرى. فإنّ من حقّ الأسير في الإسلام كِسْوَتَه، ولا يعقل أنّ الإسلام يهدر كرامة الإنسان بتركه عاري البدن، وهذا مخالفٌ للطّبائع السّليمة، كما أنّه مخالفٌ للشّريعة الإسلاميّة الّتي حرّمت النّظر إلى العورات (الزحيلي 1998، 413). ودليل ذلك قول جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنهما: "لَمَّا كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ، أُتِيَ بِأُسَارَى، وَأُتِيَ بِالعَبَّاسِ، وَلَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ ثَوْبٌ، فَنَظَرَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم لَهُ قَمِيصًا، فَوَجَدُوا قَمِيصَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ يَقْدُرُ عَلَيْهِ، فَكَسَاهُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم إِيَّاهُ، فَلِذَلِكَ نَزَعَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم قَمِيصَهُ الَّذِي أَلْبَسَهُ. قالَ ابْنُ عُيَيْنَةَ: كَانَتْ لَهُ عِنْدَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم يَدٌ، فَأَحَبَّ أَنْ يُكَافِئَهُ" (البخاري 1993، 3/ 1096 (٢٨٤٦)). وكذلك لمّا وقعت سفانة بنت حاتم الطّائي أسيرة في أيدي المسلمين، فأعطاه النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم كسوةً ونفقة، وحملها حتّى خرجت مع بعض أناسٍ من قومها (أبو شُهبة 1427هـ، 493/2).

يوجد في سيرة المصطفى صلّى الله عليه وسلّم أمثلة كثيرة فيما يتعلّق بالأسرى، ولا داعي لذكرها تفصيلًا خوفا من إطالة البحث.

4-3-2 مصير الأسرى في الإسلام

حدّد العلماء مصير الأسرى في خمسة أحكام، وهي: (المنّ، والفداء، والاسترقاق، والقتل، والمواطنة)، لكنّ الوارد صراحة في القرآن الكريم الحُكْمان الأوّلان (المنّ والفداء) فقط، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد: 4]، وسواء أفادت الآية الحصر أو الإرشاد، فإنّها وضعت المنّ أو الاختيارات المتاحة أمام المسلمين. (ديلگرتن/ 44) والمنّ هو: الإطلاق والتخلّية بلا عوضٍ ماديٍّ أو معنويٍّ (الأصفهانى 1412هـ، 778)، وصارت تخلية الأسرى دون المقابل جزءًا من رحمة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بالأسرى، من ذلك منّه على بعض أسرى بدر، ولاسيّما الّذين لم يكن لديهم ما يفدون به حريّتهم، وفيهم قصّة مثيرة "لأَبِي عَزَّةَ، عَمْرُو بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُثْمَانَ بْنِ أُهَيْبِ بْنِ حُذَافَةَ ابْنِ جُمَحَ، كَانَ مُحْتَاجًا ذَا بَنَاتٍ، فَكَلَّمَ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لقد عرفت مَالِي مِنْ مَالٍ، وَإِنِّي لَذُو حَاجَةٍ، وَذُو عِيَالٍ، فَامْنُنْ عَلَيَّ، فَمَنَّ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، وَأَخَذَ عَلَيْهِ أَلَّا يُظَاهِرَ عَلَيْهِ أَحَدًا" (المعافري 1955، 660/1). ومنّه صلّى الله عليه وسلّم لثمامة بن أثال بقوله: "أَطْلِقُوا ثُمَامَةَ" (مسلم 1955، 3/ ١٣٨٦، (1764)). ومن منّه صلّى الله عليه وسلّم فيما روي " عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ؛ أنّ ثَمَانِينَ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ هَبَطُوا عَلَى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من جَبَلِ التَّنْعِيمِ مُتَسَلِّحِينَ. يُرِيدُونَ غِرَّةَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم وَأَصْحَابِهِ. فَأَخَذَهُمْ سِلْمًا. فَاسْتَحْيَاهُمْ" (مسلم 1955، 3/ ١٤٤٢، (1808)). ومعنى استحياهم "أَعْتَقَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم" (الترمذي 2009، 467/5، (3547)). ومن منّه صلّى الله عليه وسلّم أنّه أَعْتَقَ "مِئَةَ أَهْلِ بَيْتٍ مِنْ بَنِي الْمُصْطَلِقِ" (حنبل 2001، 384/43، (٢٦٣٦٥)). وكذلك إطلاقه سراح ستّة آلاف أسير من سبي هوازن بلا مقابل (حنبل 2001، 612/11، (٧٠٣٧)). وغير ذلك.

الاختيار الثّاني للتّعامل مع الأسرى هو الفداء، "والفِداءُ: إطلاق سراح الأسير بعوضٍ، أو "ما يَفْدِي بِهِ الأسِيرُ نَفْسَهُ مِنَ الأسْرِ" (م. الشوكاني 1414هـ، 37/5). والعوض قد يكون مالاً أو تبادلاً بأسرى مسلمين أو منفعة كتعليم الأطفال القراءة والكتابة، كما فعل النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم مع أسرى بدر، روى "ابْنُ عَبَّاسٍ قَالَ: فَادَى النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم بِأُسَارَى بَدْرٍ، فَكَانَ فِدَاءُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَرْبَعَةَ آلَافٍ" (الصنعاني 2013، 464/5، (١٠٢٢٤)). ومثله لكن في التّبادل بالأسرى ما يرويه عِمْرَانُ بْنُ حُصَيْنٍ: أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم فَدَى رَجُلَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِرَجُلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ بَنِي عُقَيْلٍ" (حنبل 2001، 61/33، (١٩٨٢٧)). ومثله في الفداء بإيصال منفعة إلى المسلمين فداء بعض أسرى بدر على تعليم جماعةٍ من المسلمين الكتابة (الجوزية 2019، 97/5). وفي هذا

إشارة إلى التّوسعة فيما يفدي به الأسارى أنفسهم من منافع معيّنة من علميّة، أو صناعيّة، أو اقتصاديّة، وما شاكل ذلك، تحدّده الجهة المخوّلة لدى الدّولة (هيكل 1996، 3/1541-1542).

الاختيار الثّالث للتّعامل مع الأسرى هو القتل، لكن هناك اختلاف بين العلماء في حكم القتل، فمنهم من منعه استناداً إلى حصر الآية التّعامل في المنّ والفداء، وأكثر العلماء على أنّ الإمام مخيّر في الأسارى في (المنّ عليهم، وأخذ الفداء منهم، واستعبادهم، وقتلهم، وضرب الجزية عليهم)، وسبب هذا الاختلاف قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد: 4]، هل هو للحصر أو للإرشاد، ومنشأ هذا الخلاف أمر النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بقتل بعض النّاس في الحرب (ابن رشد 2004، 2/144-145). من ذلك ما روي عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، دَخَلَ مَكَّةَ عَامَ الْفَتْحِ، وَعَلَى رَأْسِهِ الْمِغْفَرُ، فَلَمَّا نَزَعَهُ جَاءَهُ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ابْنُ أَخْطَلَ مُتَعَلِّقٌ بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: "اقْتُلُوهُ" (ابن خزيمة 2003، 4/355، (3063)). ويفهم من قصّة ابن أخطل أنّ حكم القتل لم يكن لكونه كافرًا وأسيراً، وإنّما لكونه مجرم حرب، فله سوابقه الّتي تستحقّه للقتل من ارتكاب جرائم يستحقّ عليها الإعدام، ولهذا كان قتله مقرّرًا قبل وقوعه في الأسر (جواد 2005، 84). ومفاد هذا الاختلاف أنّ القتل هو آخر ما يُلْجَأُ إليه، "والقتل إنما يجوز إذا لم يكن يوجد بعد تأمين، وهذا ما لا خلاف فيه بين المسلمين" (ابن رشد 2004، 2/145). لكن مهما يكن من اختلاف فقد أجيز القتل في حقّ بعض الأسرى، لكن إنّ الحكم فيهم إنّما يتبع المصلحة وجوبًا، فإذا كانت المصلحة تقضي بعدم قتلهم، فلا يجوز في هذه الحال أن يحكم عليهم بالقتل. ثمّ إنّه من الممكن التّوصّل إلى الامتناع عن قتل الأسرى بالمعاهدات والاتّفاقات مع الدّول الأخرى بخصوص هذه المسألة. وفي هذه الحال يجب الالتزام ولا يجوز نقض المعاهدة بقتل الأسرى (هيكل 1996، 3/1547).

اختلاف العلماء في الاختيار الرّابع -وهو الاسترقاق- ليس أقلّ من القتل، ولاسيّما أنّ الإسلام أسّس في بداية عهده لاجتثاث العبوديّة بتضييق نطاقه، وقصره على أسرى الحرب العادلة في المعاملة بالمثل، والحثّ على العتق، وما جرى في عهد النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم كان معاملة بالمثل، لأنّ أصل مشروعيّة الرّقّ في الإسلام كان على أساس تقرير الواقع الّذي كان موجوداً قبل الإسلام. ولهذا فإرقاق السّبي راجع إلى رأي الإمام، ولا يجوز له الاسترقاق عند عدم وجود المصلحة، خصوصًا في العصر الحاضر فليس هناك داعٍ ولا مصلحة في الاسترقاق مادام هناك طرق يمكن الوصول من خلالها إلى الغرض. كما يمكن التّوصّل إلى منع الاسترقاق بحكم شرعيٍّ آخر، وهو اتّفاق الدّولة الإسلاميّة مع الدّول الأخرى على عدم اللّجوء إلى استرقاق الأسرى، ويجب على المسلمين الالتزام بالاتّفاقيّة؛ لأنّ المسلمين عند شروطهم. وبهذا يحرم الاسترقاق في هذه الحال (الزحيلي 1998، 420)، و (هيكل 1996، 3/1552)، و (گوانى 2015، 89-90).

بقي الاختيار الأخير في أيدي المسلمين في تعاملهم مع الأسارى، إذا طلب الأسير قبوله من أهل الذّمّة الّذين هم من رعايا الدّولة فيقبل طلبه إذا توفّرت شروط المواطنة فيه، ويصبح من مواطنيها حالُه حال غيره من أهل الكتاب، لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين. واتّفقت المذاهب على مشروعيّة عقد الذّمّة لأسرى العدوّ غير المسلمين (هيكل 1996، 3/1552) و (گوانى 2015، 95).

4-4 المفاوضات والصّلح في ميزان الإسلام

توجد دوافع كثيرة لتكوين صلاح الدّين قائدًا متميّزًا جديرًا بوصفه بطلاً تاريخيًّا إنسانيًّا استثنائيًّا، منها إقدامه نحو الصّلح ومدّ اليد إلى التّفاوض وإيقاف الحروب ما أمكن ووثق به، ولا يستغرب هذه المواقفَ كلُّ مَن اطّلع على جوهر الإسلام سواء فيما يتعلّق بالمفاوضات أو يتّصل بالصّلح والمعاهدات، وهنا يُتَطَرَّقُ موجزًا إلى موقع الصّلح والمفاوضات في الإسلام.

ليس مستغربًا أن يكون صلاح الدّين الأيّوبي مقدامًا تجاه الصّلح ما أمكن ذلك وتيقّن صدق العدوّ ولو نسبيًّا، وذلك لأنّ السّلم هو الأصل كما مرّ في هذا البحث، والحرب حالة اضطراريّة رادعة لاعتداء متأكّد أو خطوة استباقيّة لاعتداء متيقّن، والتّاريخ شاهدٌ على أنّ الإسلام في حال السّلم أوسع انتشارًا وأكثر أمانًا وأقلّ ضحيّة وأضمن مستقبلاً، وهنا إعادةٌ لبعض النّصوص الدّالّة على كون السّلم أصلاً في علاقة المسلمين مع غيرهم، منها قوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: 61]. وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد: 4]. وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِي ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾ [البقرة: 208-209]. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ [النساء: 94]. وقوله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ [النساء: 90]. وقوله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: 8]. والسّلم: هو الصّلح والسّلام ودين الإسلام. واللّفظ يشمل جميع معانيه الّتي يقتضيها المقام (رضا 2007، 2/280). ففي هذه الآيات دلالةٌ واضحةٌ على أنّ الأصل هو

السّلم، وأنّ الحرب عارضة على الحالة الطّبيعيّة، ولهذا أمرت بالعودة إلى الأصل الطّبيعي كلّما سنحت الفرصة، والصّلح إحدى الطّرق المؤدّية نحو العودة إلى هذا الأصل الطّبيعيّ (الزحيلي 1998، 134).

أقوال بعض العلماء في أنّ الأصل هو الحرب محمولة على الإعداد بالقوّة تهيّئًا لما يطرأ عليهم من نشوب حرب وقتال؛ لأنّ هؤلاء العلماء عاشوا على الأكثر في زمن الحروب، ومن هنا قرّروا أنّ الأصل هو الحرب، كي يكون المسلمون على أهبة استعدادٍ دائمٍ، لأنّ الاطمئنانَ إلى السّكينة والخلودَ إلى الرّاحة وتناسيَ الخطر الخارجي المحدق ممّا يمهّد للقضاء على الدّعوة في مهدها. وهذا جزءٌ من الاجتهاد في السّياسة الشّرعيّة المعتمد على رعاية المصلحة العامّة للمسلمين وكيانهم (الزحيلي 1998، 130).

بناءً على ما سبق، إنّ الإسلام يسلك جميع الطّرق المؤدّية إلى السّلم، منها الصّلح، ولا سيّما الآية الكريمة القائلة ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا﴾ [الأنفال: 61]، والأمر هنا للوجوب لعدم وجود صارف، فالجنوح للسّلم يعني شرعنة الصّلح، فضلاً عن الآيات السّابقة الدّالة على السّلم والصّلح، والصّلح نوعان صلحٌ مؤقّتٌ بترك القتال مدّة معيّنة، ويسمّى أيضًا الموادعة والمعاهدة والمسالمة والمهادنة والهدنة. وصلحٌ مؤبّدٌ، كإقرار عهد الذّمّة، ولا يعني هذا (عهد الذّمّة) اختصاص الصّلح بأهل الكتاب، بل يشمل غيرهم أيضًا، واستشهد الإمام (البخاري 1993، 1158/3) بالآية السّابقة على مشروعيّة المصالحة مع المشركين، وعنون بابًا في صحيحه بـ(الْمُوَادَعَةِ وَالْمُصَالَحَةِ مَعَ الْمُشْرِكِينَ بمال وَغَيْرِهِ، وَإِثْمِ مَنْ لَمْ يَفِ بِالْعَهْدِ)، وعمليًّا، عقد النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم الصّلح مع مشركي مكّة في الحديبية، ومع يهود خيبر، ونصارى نجران (الزحيلي 1998، 656-662).

اختيار نوع الصّلح وكيفيّاته والشّروط المترتّبة عليه خاضعةٌ للسّياسة الشّرعيّة بشروطها من عدالة الإمام وتديّنه وبصيرته ومشاورته، ولا يتوقّف على قياسٍ أو استدلالٍ سابقة، لأنّ الأصل في عقد المعاهدات هو تحقيق مصلحة المسلمين، لكن يجب الاحتراز عن المساس بأصل مشروعيّةِ الصّلح والمعاهدات، فهو ثابتٌ لا يجوز إبطاله أو اجتثاثه من أحكام الشّريعة الإسلاميّة (البوطي 2006، 238)، و (العوا 2006، 188).

أمّا الرّأي القائل بأنّ آية الصّلح منسوخة بآية القتال، فضعيف؛ لأنّ لكلّ من الصّلح والقتال شأنًا خاصًّا تبيّنه الآيات على اختلاف المواقف والمواقع، ومصطدمٌ أيضًا مع فعل الصّحابة، "وَقَدْ صَالَحَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي زَمَنِ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومن بَعْدَهُ مِنَ الْأَئِمَّةِ كَثِيراً مِنْ بِلَادِ الْعَجَمِ، عَلَى مَا أَخَذُوهُ مِنْهُمْ، وَتَرَكُوهُمْ عَلَى مَا هُمْ فِيهِ، وَهُمْ قَادِرُونَ عَلَى اسْتِئْصَالِهِمْ" (القرطبي 1964، 40/8).

للإمام عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه كلمة جامعة لأغراض الصّلح: "ولا تدفعنّ صلحًا دعاك إليه عدوّك للّه فيه رضًا، فإنّ في الصّلح دعةً لجنودك وراحةً من همومك، وأمنًا لبلادك، ولكن الحذر كلّ الحذر من عدوّك بعد صلحه، فإنّ العدوّ ربّما قارب ليتغفل، فخذ بالحزم، واتّهم في ذلك حسن الظّنّ" (الزحيلي 1998، 656).

إذا ارتقى الصّلح إلى حال سلمٍ أطولَ وأشملَ، وهو ما يسمّى المعاهدة، أو الميثاق، والعهد أن يتّفق فريقان على الالتزام بينهما لمصلحتهما المشتركة، فإن أكّداه ووثّقاه بما يقتضي زيادةَ العناية بحفظه، والوفاء به يسمّى ميثاقًا. والغرض من المعاهدات في الإسلام هو ترك قتال كلٍّ من الفريقين المتعاهدين للآخر، وحرّيّة التّعامل بينهما.

يجب على المسلمين الالتزامُ والوفاءُ بالعهد بل هو من فرائض الإسلام، ومن التّقوى، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ [المائدة: 1]، وقال سبحانه: ﴿فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡ﴾ [التوبة: 4]، وقال جلّ جلاله: ﴿فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡ﴾ [التوبة: 7]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ﴾ [الرعد: 20]، وقال سبحانه في بيان صفات المؤمنين: ﴿وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْ﴾ [البقرة: 177] (الزحيلي 1998، 345-350).

لهذا لم ينكث المسلمون عهودَهم ومواثيقَهم مع غير المسلمين، وللإمام النّووي قول يعدّ زبدةَ جميع الأقوال والآراء المتعلّقة بالوفاء بالعهود: "اتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى جَوَازِ خِدَاعِ الْكُفَّارِ فِي الْحَرْبِ وَكَيْفَ أَمْكَنَ الْخِدَاعُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ فِيهِ نَقْضُ عَهْدٍ أَوْ أَمَانٍ فَلَا يَحِلُّ" (النووي، 1392هـ، 45/12). أمّا إذا نقض الآخرون العهد أو الصّلح أو الأمان، فيجوز للمسلمين اختيار ما يرونه في مصلحتهم من قتالٍ وغيره (البوطي 2006، 331).

أخيراً تبيّن مدى التزام السّلطان صلاح الدّين بأوامر الإسلام في تعامله النّبيل أثناء الصّلح والمعاهدات وإبرام الاتّفاقيات.

4-5 أخلاقيات الحرب في ميزان الإسلام

وضع الإسلام أخلاقيّاتٍ للقتال، فعلى المسلمين الالتزامُ بها أثناء الحرب والقتال مع الأعداء، وذلك بالتّمييز بين مَنْ يجوز قتالهم ومن لا يجوز، وكذلك هناك تعامل متميّز مع أماكن خاصّة وقت القتال، لم يطلق الإسلام أيدي المجاهدين بقتل من شائوا بقصد الانتقام من عدوّهم، أو من أجل ممارسة الضّغط على إرادته. وقبل ذكر مَنْ لا يُقْتَلُوْنَ في الحرب يجب التّذكير بأنّ من

واجب المسلمين مراعاةَ العهود والمعاهدات والمواثيق، ولا سيّما إذا وقّع المسلمون عليها في المحافل والمنظّمات العالميّة تقليلا للخسائر البشريّة واحترامًا للكرامة الإنسانيّة (هيكل 1996، 1552/2) و (العناني 2012، 23-24).

كذلك فرّق الإسلام بين المقاتلين والمدنيّين المسالمين، وهذا ناشئٌ عن مبدءٍ إسلاميٍّ قوامُه: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: 164]، وأحاديث نبويّة صريحة نهى فيها النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم عن قتل (النّساء) و(الشّيوخ) الّذين لا يشتركون في القتال، وعن قتل (الأطفال)، لأنّهم ضعفاء لا يقتلون ولا يشتركون في القتال، ولأنّ القتال لدفع الاعتداء، ولا اعتداء لهم (أبو زهرة 1995، 104).

عَنْ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: "وُجِدَتِ امْرَأَةٌ مَقْتُولَةً فِي بَعْضِ مَغَازِي رَسُولِ اللَّهِ صلّى الله عليه وسلم، فَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ" (البخاري 1993، 1098/3، (٢٨٥٢)) و (مسلم 1955، 1364/3، (١٧٤٤)).

وقال المصطفى صلّى الله عليه وسلّم: "انْطَلِقُوا بِاسْمِ اللهِ وَبِاللهِ وَعَلَى مِلَّةِ رَسُولِ اللهِ، وَلَا تَقْتُلُوا شَيْخًا فَانِيًا وَلَا طِفْلًا وَلَا صَغِيرًا وَلَا امْرَأَةً، وَلَا تَغُلُّوا، وَضُمُّوا غَنَائِمَكُمْ وَأَصْلِحُوا وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ" (أبو داود 2009، 37/3)، رقم الحديث: (٢٦١٤) و (البيهقي، السنن الكبرى 2003، 154/9، (١٨١٥٥)).

وقال صلّى الله عليه وسلّم: "سِيرُوا بِاسْمِ اللهِ، وَفِي سَبِيلِ اللهِ، فَقَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ، [وَلَا تَمْثُلُوا]، وَلَا تَغْدِرُوا، أَوَ لَا تَغُلُّوا]، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا" (ابن ماجه 2009، 118/4، (٢٨٥٧)).

ونهى صلّى الله عليه وسلّم عن قتل العسفاء، وهم العمّال الّذين يستأجرون للعمل الّذين لا يحاربون وليس لهم في الحرب عمل، ومن هنا أمر صلّى الله عليه وسلّم خالد بن الوليد رضي الله عنه: "لَا تَقْتُلَنَّ ذُرِّيَّةً وَلَا عَسِيفًا" (حنبل 2001، 151/29، (١٧٦١٠)). والعسيف يشمل جميع أنواع العملة، منهم العمّال الأجراء في المصانع، وعمّال النّظافة في الطّرقات، والأطبّاء الأجراء، والفلاّحين الأجراء في الحقول (هيكل 1996، 1247/2).

نهى أيضًا عن أصحاب المعابد الّذين انعزلوا عن القتال وهم يتعبّدون في المعابد، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ صلّى اللّه عليه وسلّم إِذَا بَعَثَ جُيُوشَهُ قَالَ: "اخْرُجُوا بِسْمِ اللهِ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ مَنْ كَفَرَ بِاللهِ، لَا تَغْدِرُوا، وَلَا تَغُلُّوا، وَلَا تُمَثِّلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا الْوِلْدَانَ، وَلَا أَصْحَابَ الصَّوَامِعِ" (حنبل 2001، 461/4، (٢٧٢٨)) و (الطبراني 2006، 224/11، (١١٥٦٢)) و (البزار 2009، 93/11 (٤٨٠٦)).

ليست الغاية هنا تعداد جميع مَنْ يَحْرُمُ التّعرّضُ لهم أثناء الحرب، بل يمكن إجمالهم في مبدءٍ عامّ وهو (التّمييز بين المقاتل وغير المقاتل)، وهذا المبدأ بمثابة قاعدة عامّة استنبطت من عدد من آيات الكتاب الحكيم، منها قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: 190] (الفهداوي 2012، 159).

انتهج الخلفاء الرّاشدون هذه القاعدة في حياتهم، واقتدوا بالرّسول الأكرم صلّى الله عليه وسلّم، فقال أبو بكر الصّديق رضي الله عنه في وصيّته: "يا أيّها النّاس قفوا، أوصيكم بعشر فاحفظوها عنّي: لا تخونوا، ولا تغلّوا، ولا تغدروا، ولا تمثّلوا، ولا تقتلوا طفلًا ولا صغيراً ولا شيخًا كبيراً ولا امرأةً، ولا تقذفوا نخلًا، ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرةً مثمرةً، ولا تذبحوا شاةً ولا بقرةً ولا بعيراً إلا لمأكلة، وسوف تمرّون بأقوامٍ قد فرغوا أنفسهم في الصّوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم، وسوف تقدمون على أقوامٍ يأتونكم بآنيةٍ فيها ألوان الطّعام فإذا أكلتم منها شيئًا بعد شئٍ فاذكروا اسم اللّه عليها، وسوف تلقون أقواما قد فحصوا أوساط رؤوسهم تركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيوف خفقا اندفعوا بسم الله" (الهندي 1981، 580/10، (٣٠٢٦٩)) و (ابن عساكر 1995، 50/2).

استند العلماء في منع التّخريب وقتل غير المقاتلين، إلى عمل الصّديق والّذي أجمع عليه الصّحابةُ، المعتمد أصلاً على نصوص القرآن والسّنّة، من ذلك قولُ الإمام الأوزاعي: "إنّه يمنع قطع الشجر والثمر وأي تخريب اتّباعًا لكلام الصدّيق، والصدّيق حجّة، وخصوصا أنّ كلامه وافق عليه بقيةُ الصحابة، وما يمكن ذلك من غير اعتمادٍ على قول النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أو عَمَلٍ، ولأنّه لا ضرورة حربية تسوّغ التخريب، فإذا كانت هناك ضرورة حربيّة كأن يستتر به الأعداء ويتّخذوه كمينًا أو حصونًا تستخدم ضدّ المسلمين فإنّه يصحّ قطع الأشجار وتهديم البنا" (أبو زهرة 1995، 106).

4-6 أخلاق صلاح الدّين في ميزان الإسلام

لا شكّ أنّ أخلاق صلاح الدّين السّالف ذكرها ناشئة عن روح الإسلام، سواء في عبادته من صلاةٍ وصيامٍ وزكاةٍ وقراءة قرآن...، أو في تعامله مع النّاس، ولاسيّما مع الأسرى الصّليبيّين وقادتهم أيضًا، وهو لبّ هذه الدّراسة، فحافظ صلاح الدّين على روح التّسامح والكرامة الإنسانيّة، وكان بإمكانه تلويث الإنسانيّة وقتل روحها، وارتكاب أنواع القتل نساء وأطفالاً وشيوخًا وأسرى، وما جرى خلال

حكمه من القتل أو الحرق أو غيرهما كان ردًّا بالمثل وفي حالاتٍ نادرة رعايةً للسّياسة الشّرعية، أو كان تجاوزًا ارتكبه جنده، ومن الصّعب السّيطرة عليهم أثناء الحرب وفي اشتداد القتال وفيهم مختلف الطّبائع ودرجات متفاوتة من الإيمان، وشتّى الأغراض للمشاركة في القتال. وثالثًا لا يمكن المقارنة بينها وبين الجرائم الكبرى للصّليبيّين تجاه المسلمين.

لا حاجة إلى التّفصيل في تقييم أخلاق صلاح الدّين في ميزان الإسلام وقد مرّ أنّ مرجع أخلاقه هو القرآن والسّنّة وسيرة الصّالحين. وكذلك سبق أنْ تمرّ تقييم أعماله في نظر الإسلام ما يغني الإطالة هنا مرّة أخرى. ويكفي الاستشهاد بقول مفكّر غربيّ في وصفه لأخلاق صلاح الدّين بالنّبيل ومقارنته بقادة الصّليب، قال المستشرق الفرنسي عالم الاجتماع غوستاف (لوبون 2012، 330): "وليس من الصّعب أن يتمثَّل المرء درجة تأثير تلك الكبائر في صلاح الدين النّبيل الّذي رَحِم نصارى القدس ولم يمسَّهم بأذىً، والّذي أمدَّ فليب أوغست وقلب الأسد ريكاردس بالأزواد والمُرطّبات في أثناء مرضهما، فقد أبصر الهُوَّة العميقة بين تفكير الرّجل المتمدّن وعواطفه وتفكير الرّجل المتوحّش ونزواته، وأدرك أنّه لا يجوز أن يعامَل أولئك الحمقى بغير ما تعامل به الوحوش الضّارية".

بقي التسليط على نقطة جوهريّة تتعلّق بالجانب القومي لصلاح الدّين الأيّوبي، وهو جواب عن سؤال مفاده: لماذا اختلف صلاح الدّين عن بقيّة حكّام المسلمين من الأمويّين والعبّاسيّين والعثمانيّين وغيرهم؟، لم يخلُ عصرٌ إسلاميّ من تسامح وطيب أخلاقٍ، لكن لم يبرز أحدٌ مثل صلاح الدّين الأيّوبي كسلطان التّسامح والرّأفة والرّحمة عند المسلمين وغيرهم وأهل جميع القارات، حتّى يمكن القول إنّ موقفه أقوى من موقف الخليفة العادل عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، فالخليفة دخل القدس فاتحًا وسِلْمًا دون سابق احتكاك واصطدام، أمّا السّلطان فقد دخله بعد معارك دمويّة ومواقف وحشيّة للصّليبيّين في حقّ أهل الإسلام، ومن غير المتوقّع أن يترحّم القائد بهم ويترأف معهم، والغربيّون أنفسهم يستغربون هذه المواقف النّبيلة له. وهذا ليس تنقيصًا في شأن الخليفة العادل، فهو ثالث رجال الإسلام بعد النّبيّ الأكرم صلّى الله عليه وسلّم والصّديق رضي الله عنه، وشهد له النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وبُشِّرَ بالجنّة.

الجواب أنّ هذه الرّوح الفاضلة والأخلاق النّبيلة لها علاقة مباشرة بعرقه وقوميّته، فسجيّة الشّعب الكوردي انطبعت بالتّسامح الإسلامي، وهذه الطّبيعة لا زال الشّعب الكوردي يتمتّع بها، وهناك أمثلة كثيرة، منها لمّا انتفض الشّعب الكوردي ضدّ حكومة البعث العراقيّة سنة (1991م) وقع مئات آلاف من جنود العراق في أيدي الشّعب الكوردي لكنّهم فسحوا الطّريق أمامهم وخَلَّوْهُم أن يرجعوا إلى مدنهم وقراهم في وسط العراق وجنوبه، بل مدّوهم بالطّعام والماء واللّباس، ولم يكن مضت بعدُ سنةٌ أو سنتان على استشهاد أكثر من مأة ألف كوردي بأيدي جيش هؤلاء الجنود.

تكرّر المشهد أيضًا عندما غزا تنظيم داعش العراق وأخرج القوّاتِ العراقيّةَ من مساحات عراقيّة شاسعة من المناطق الّتي يقطنها السّنّة، واللافت أنّ العرب السّنّة من الموصل والرمّادي والفلوجة وسامرّاء وكركوك وتكريت وغيرها فضّلوا اللّجوء إلى إقليم كوردستان بدلا من بغداد ومناطق عربيّة أخرى، والشّعب الكوردي فتح لهم الأبواب وعاشوا معًا في أخوّة ووئام، حتّى سمّيت قضاء (شَقْلاوه) التّابعة لمحافظة أربيل، شعبيًّا باسم (شَقْلوجه)؛ لأنّ أكثريّة سكّانها أصبحت من أهل (الفلوجة).

لم تكن الأقلّيّات الدّينية مختلفة عن العرب والمسلمين، فالمسيحيّون بكلّ مذاهبها وطوائفها اختاروا العيش مع الكورد وفي إقليم كوردستان وفضّلوهم على قوميّات أخرى ومناطق أخرى، وذلك قبل داعش وبعده. نقلت قناة الجزيرة في (2007/4/27) قول (فادي توما) الشماس بإحدى الكنائس في ضواحي بغداد "إنّ عدّة آلاف من العائلات المسيحيّة التي لم تتمكن من الهجرة إلى أوروبا فضّلت التوجّه إلى شمال العراق مستفيدة من حوافز خاصّة بالمسيحيّين كانت الإدارة في إقليم كوردستان تبنّتْها منذ خريف 2004" (مشعل 2007).

نشرت وكالة رويترز للأنباء في (2010/12/17) هذا الخبر: "قالت مفوضية الأمم المتّحدة لشؤون اللاجئين يوم الجمعة أنّ الآلاف من المسيحيّين العراقيّين فرّوا من ديارهم إلى المناطق الكوردية التي تتمتّع بما يشبه الاستقلال عن العراق وإلى دول مجاورة بعد الهجوم الّذي وقع على الكنيسة الكاثوليكيّة في بغداد قبل ستّة أسابيع. وقال المفوّض السّامي لشؤون اللّاجئين بالأمم المتّحدة إنّ ما يقرب من ألف أسرة مسيحية أي ما يقرب من (6000) شخص وصلوا إلى المناطق الكورديّة في شمال العراق قادمين من بغداد والموصل ونينوى. كما عَبَرَ عدّةُ آلاف الحدودَ إلى سوريا والأردن ولبنان" (Reuters 2010).

عندما هاجم تنظيمُ الدولة الإسلامية العراقَ وانهارت القوّاتُ المسلّحة العراقيّة وانسحبت، هرعت الأقليات الدّينية والعرقية إلى إقليم كوردستان طلباً للحماية. في 26 يونيو 2014، كان العنوان الرئيسي لصفحة قناة الجزيرة على الإنترنت هو "مسيحيو العراق يلتمسون اللّجوء لدى الكورد" (Salih 2014).

أخيراً، عندما هُزم تنظيمُ الدّولة الإسلاميّة، اضطرّ العديد من العرب السّنّة، بما في ذلك بعض مقاتلي داعش أنفسهم، إلى اللّجوء وطلبوا "الرّحمة" من القوّات المسلّحة الكوردستانيّة، البيْشمرگه، لأنّهم لم يثقوا في أنّ الحكومة العراقية التي يقودها العرب الشّيعة ستعاملهم بشكلٍ عادلٍ. في الأوّل من تشرين الأول/أكتوبر 2016، ذكرت صحيفة نيويورك تايمز، حالةَ الأشخاص الفارّين من الحويجة، معقل تنظيم الدولة الإسلامية، أثناء هجوم الجيش العراقي ووكلاء إيران؛ "بينما سعى المدنيّون من المعقل، مدينة الحويجة، إلى البحث عن الأمان في كركوك وأماكن أخرى في المنطقة الكوردية بالعراق، كانت نهاية الأسبوع الماضي هي المرة الأولى التي يأتون فيها بأعداد كبيرة مع رجال في سن القتال" (Nordland 2017).

كانوا يعلمون أنّ بإمكانهم نتيجة ثقتهم هذه في بيْشمرگه كوردستان أن يحصلوا على معاملةٍ أفضل كأسرى حربٍ أو كلاجئين أو نازحين داخليًا (Demirhan 2018).

5- الخاتمة

بعد الدراسة لما قيل عن أخلاق صلاح الدّين الأيّوبي الإنسانية حول تعامله مع غير المسلمين في السّلم والحرب والمفاوضات والمعاهدات، وكذلك الإشادات المتكرّرة من الغربيّين والشّرقيّين، ثمّ البحث في أصل مصادر هذه الأخلاق الفضيلة، تمّ التّوصّل إلى صحّة هذه الأخلاق، وأنّ هناك نوعًا من الاتّفاق بين الكتّاب والمؤرّخين قديمًا وحديثًا على مكارم أخلاقه وسموّ فضله وسلوكه، ويعدّ هذا من أقوى الشّهادات له من قبل أصحاب مختلف القوميّات والأديان وفي مختلف العصور والأزمان. وبعد المقارنة مع النّصوص الإسلاميّة من القرآن والسّنّة تبيّن أنّ أصل هذه الأخلاق عائد إلى التّربية الإسلاميّة النّظريّة والتّطبيقيّة، ولا يوجد من محاسنه الشّريفة شيءٌ غريب عن الإسلام، لكنّ السّلطان تميّز بتطبيق هذه الأخلاق الإسلامية، ولم يحبسها في سجن النّظريّات أو حالات الضّعف فقط، والسّبب هو تزكيته الدّائمة والثّابتة للنّفس، والتزامه بمحاسبتها، والابتعاد عن الأنانيّة، وهذا يعني أنّ بإمكان المسلمين محاكاةَ هذه الأخلاق إذا هم فعلاً تربّوا في المدرسة النّبويّة وتخلّوا عن روح الأنانيّة وحبّ الذّات والانتقام والكراهيّة، ووضعوا مرضاة الله تعالى وتطبيق الإسلام قبل هوى النّفس وغاياتها القصيرة. ونتيجة لذلك فيتمّ عرض الإسلام في أبهى حليّه، ويصير موضع الإعجاب، ويفتح منافذ كثيرة للتّعايش فيما بين المسلمين أنفسهم، وبينهم وبين غيرهم أيضًا، وأخيراً يحلّ السّلام محلّ الحرب والاقتتال، والحبّ محلّ الكراهيّة، والصّدق محلّ الكذب، والطّمأنينة محلّ القلق، والأمان محلّ الخيانة. وهذا أفضل دواءٍ لداء الكراهيّة والحقد الصّاعد في هذا العصر.

6- التوصيات

لم يكن خلق صلاح الدّين الإنساني وليد يومٍ أو يومين، بل كان عمليّة تربويّة طويلة من تربية أجيالٍ إسلاميّة استغرقت سنواتٍ عديدةً بدأ بالإصلاحات التربويّة وإعادة النّظر في بناء الإنسان المسلم بوضع لبنات فكريّة أخلاقيّة جامعة للعقل والنّقل، وتنقية بطون الكتب بالرّدّ على ما يؤدّي إلى الفساد الأخلاقي والرّوحي، وكذلك تزكية نفس الأساتذة والطّلبة، وتطهير سلوكهم من شتّى الانحرافات، وتحديد أمراض الأمّة الجوهريّة ثمّ وضع الدّواء لها، وإعادة المدارس الإسلاميّة إلى مسارها الحقيقي، وتخرّج نتيجة ذلك أجيالٌ ضحّوا بأنفسهم في سبيل الآخرين، وقدّموا مصلحة الأمّة والإنسانيّة على المصالح الشّخصيّة، بل ومنهم من هجر الدّنيا وتوجّه إلى تربية أولاد المسلمين، وأبرز مثال على ذلك الإمام الغزالي والشّيخ عبد القادر الجيلاني والشّيخ أحمد الرفاعي وغيرهم ممّن أثّروا في الأجيال اللّاحقة، وكلّ من يقرء حياة صلاح الدّين ومن سبقوه يجد أثر هذه التّربية عليهم. ومن هنا يوصي الباحث:

على الوزارات المعنيّة والعلماء وكلّ من له علاقة بقضيّة التّربية مراجعتها وإعادتها إلى مسارها الصّحيح، وخصوصًا محاولة اقتباس مواقف تربويّة من حياة صلاح الدّين وأمثاله ووضعها في المناهج التّربويّة، وتمّ التّسليط على بعض تلك المواقف في هذا البحث، لأنّ الإنسان المعاصر في أمسّ حاجةٍ إلى أسوة عمليّة للاقتداء بها في التّعامل، ولا سيّما أنّ صلاح الدّين الأيّوبي القائد المسلم الكوردي أُهْمِلَ داخل أوساط التّربية، وهو الّذي يفتخر به الشّرق والغرب، وبدون تربية صحيحة لن يكون هناك أمل في الإصلاح، وبعد التّوفيق في المجال التّربويّ ستصلح المجالات الأخرى الإداريّة والاقتصاديّة والعسكريّة... لأنّ الإنسان هو الأساس فإذا صلح هو صلح الباقي، وإذا فسد فسد، وكما قيل: (بناء الإنسان قبل بناء العمران).

7- المصادر والمراجع

بعد القرآن الكريم

-ابن الأثير, عزّ الدّين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد الشيباني الجزري .1997 .الكامل في التّاريخ .الطّبعة الأولى .تحقيق: عمر عبد السلام تدمري .بيروت, لبنان: دار الكتاب العربي.

-ابن خزيمة, أبو بكر محمد بن إسحاق .2003. صحيح ابن خزيمة .الطبعة الثالثة .تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي .بيروت, لبنان: المكتب الإسلامي.
-ابن رشد, أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد .2004. بداية المجتهد ونهاية المقتصد .القاهرة, مصر: دار الحديث.
-ابن زنجويه, أبو أحمد حميد بن مخلد الخرساني .1986. الأموال .الطبعة الأولى .تحقيق: د. شاكر ذيب فياض .الرياض, السعودية: مركز الملك فيصل.
-ابن سعد, محمد بن سعد بن منيع الزهري .2001. الطّبقات الكبرى .الطبعة الأولى .تحقيق: الدكتور علي محمد عمر .القاهرة, مصر: مكتبة الخانجي.
-ابن شدّاد, بهاء الدّين أبو المحاسن يوسف بن رافع .1994. النوادر السّلطانية والمحاسن اليوسفيّة .الطبعة الثانية .تحقيق: د. جمال الدين الشيال .القاهرة, مصر: مكتبة الخانجي.
- ابن عاشور, محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر .1984. التحرير والتنوير .الطبعة الأولى .تونس, تونس: الدار التونسية.
-ابن عساكر, أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي .1995. تاريخ مدينة دمشق .تحقيق: محب الدين أبو سعيد عمر بن غرامة العمروي . بيروت, لبنان: دار الفكر.
-ابن عطية, أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام الأندلسي1422 .هـ .المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز .الطبعة الأولى .تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد .بيروت, لبنان: دار الكتب العلميّة.
-ابن ماجه, أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني .2009. سنن ابن ماجه .الطبعة الأولى .تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون .بيروت, لبنان: دار الرسالة العالمية.
-أبوحديد، محمد فريد أبوحديد .2018. صلاح الدين الأيوبي رجل عصره .المملكة المتحدة: مؤسّسة الهنداوي.
-أبو داود, أبو داود سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني .2009. سنن أبي داود .الطبعة الأولى .تحقيق: شعيب الأرنؤوط و محمد كامل قره بللي .بيروت, لبنان: دار الرسالة العالمية.
-أبو زهرة, محمد .1995. العلاقات الدولية في الإسلام .القاهرة, مصر: دار الفكر العربي.
-أبو زهرة،, محمد .1961. نظريّة الحرب في الإسلام .الطبعة الأولى .القاهرة, مصر: دار القاهرة.
-أبو شامة, عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي .2003. مختصر كتاب الروضتين في أخبار الدّولتين .الطبعة الثالثة .تحقيق: د. محمد بن حسن بن عقيل بن موسى الشريف .جدة, السعودية: دار الأندلس الخضراء.
-أبو شُهبة, محمد بن محمد بن سويلم1427 .هـ .السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة .الطبعة الثامنة .دمشق, سورية: دار القلم.
-أبو عُبيد،, القاسم بن سلاّم بن عبد الله الهروي البغدادي .n.d .الأموال .تحقيق: خليل محمد هراس .بيروت, لبنان: دار الفكر.
-أبو يوسف, يعقوب بن إبراهيم .2009. الخراج .بغداد, العراق: دار الجمل.
-أرمسترونج, كارين .1998. القدس مدينة واحدة وعقائد ثلاث .ترجمة: د. فاطمة نصر و د. محمد عناني .المدينة المنورة, السعودية: مركز سطور.
-الأصفهانى, أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب1412 .هـ .المفردات في غريب القرآن .الطبعة الأولى .تحقيق: صفوان عدنان الداودي .دمشق، بيروت, سورية، لبنان: دار القلم ، الدار الشامية.
-أكبر، مبشر جاويد .2009. تحت ظلال السيوف بين الإسلام والمسيحيّة. الطّبعة الأولى .ترجمة: عميد الزمان الكيرانوي وراشد علي .أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة: هيئة أبوظبي للثقافى والتراث – كلمة.
-الآلوسي, شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني1415 .هـ .روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني .الطبعة الأولى .تحقيق: علي عبد الباري عطية .بيروت, لبنان: دار الكتب العلمية.
- أنس, مالك بن .1985. الموطّأ .تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي .بيروت, لبنان: دار إحياء التراث العربي.
-البخاري, أبو عبد الله محمد بن إسماعيل .1993. الجامع المسند الصحيح المختصر من أُمور رسول الله صلى الله عليه وسلّم وسننه وأيامه .الطبعة الخامسة . تحقيق: د. مصطفى ديب البغا .دمشق, سورية: دار ابن كثير، دار اليمامة.
-بدليسي، مير شەرەفخانى .2006. شەرەفنامە: مێژووی مالّەمیرانی کوردستان. چاپی سێیەم .وەرگێڕانی: هەژار. هەولێر، هەرێمی کوردستان، عێراق: دەزگای ئاراس.
-بروكلمان, كارل .2001. تاريخ الشّعوب الإسلاميّة .الطبعة الخامسة .ترجمة: نبيه أمين فارس و منير البعلبكي .بيروت, لبنان: دار العلم للملايين.
-البزار, أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق العتكي .2009. البحر الزخار .الطبعة الأولى .تحقيق: عادل بن سعد .المدينة المنورة, السعودية: مكتبة العلوم والحكم.
- البغوي, أبو محمد الحسين بن مسعود .1997. معالم التنزيل في تفسير القرآن .الطبعة الرابعة .تحقيق: محمد عبد الله النمر -, سليمان مسلم الحرش و عثمان جمعة ضميرية .بيروت, لبنان: دار طيبة.
-البوطي, د. محمد سعيد رمضان .2006. فقه السيرة النبوية .الطبعة السادسة عشرة .بيروت، دمشق, لبنان، سورية: دار الفكر المعاصر، دار الفكر.
-بول, ستانلي لين .2023. صلاح الدّين وسقوط مملكة بيت المقدس .الطبعة الأولى .ترجمة: علاء مصري النهر .القاهرة, مصر: الدار المصريّة اللبنانية.
-البيهقي, أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي .1988. دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة .الطبعة الأولى .تحقيق: د. عبد المعطي قلعجي .بيروت, لبنان.
-البيهقي, أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي .2003. السنن الكبرى .الطبعة الثالثة .تحقيق: محمد عبد القادر عطا .بيروت, لبنان: دار الكتب العلميّة.
-البيّومي, د. محمّد رجب .1998. صلاح الدّين الأيّوبي قاهر العدوان الصّليبي .الطبعة الأولى .دمشق, سورية: دار القلم.
-الترمذي, أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة .2009. الجامع الكبير .الطبعة الأولى .تحقيق: شعيب الأرنؤوط .بيروت, لبنان: دار الرسالة العالمية.
-جب, هاملتون.آ.ر .1996. صلاح الدين الأيّوبي دراسات في التاريخ الإسلامي .الطبعة الثانية .ترجمة: د. يوسف إيبش .بيروت, لبنان: بيسان.
-جمعة, د. علي .2018. التّعايش مع الآخر في ضوء السّيرة النّبويّة .الطبعة الأولى .القاهرة, مصر: شركة بروج.
-جواد, علي أحمد .2005. أحكام الأسرى في الفقه الإسلامي والقانون الوضعي .الطبعة الأولى .بيروت, لبنان: دار المعرفة.

-الجوزية, أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم .2019 .زاد المعاد في هدي خير العباد .الطبعة الثالثة .تحقيق: محمد أجمل الإصلاحي .الرياض - بيروت, السعودية - لبنان: دار عطاءات العلم - دار ابن حزم.

-الحلبي, أبو العباس شهاب الدين أحمد بن يوسف بن عبد الدائم .1996 .عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ .الطبعة الأولى .تحقيق: محمد باسل عيون السود .بيروت, لبنان: دار الكتب العلميّة.

-حنبل, أحمد بن .2001 .مسند الإمام أحمد بن حنبل .الطبعة الأولى .تحقيق: مؤسسة الرسالة وآخرون .بيروت, لبنان: مؤسسة الرسالة.

- داچيل, ريمون .1990 .تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس .الطبعة الأولى .ترجمة: د. حسين محمّد عطيّة .الأسكندرية, مصر: دار المعرفة الجامعيّة.

- الدّهان، الدكتور محمّد سامي .1960 .النّاصر صلاح الدين الأيّوبي .الطّبعة الأولى .مصر، القاهرة: دار المعارف.

- ديورانت، ويليام جيمس .1998 .قصّة الحضارة .ترجمة: ترجمة: زكي نجيب محمود، وآخرين .بيروت، لبنان: دار الجيل.

- الرازي, أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي1420 .هـ .مفاتيح الغيب .الطبعة الثالثة .بيروت, لبنان: دار إحياء التراث العربي.

- رستون, جيمس .2002 .مقاتلون في سبيل الله .الطبعة الأولى .ترجمة: د. رضوان السيد .الرياض: العبيكان.

-رضا, محمد رشيد .2007 .تفسير القرآن الحكيم .الطبعة الأولى .بيروت, لبنان: دار الفكر.

- الزحيلي, د. وهبة .1998 .آثار الحرب في الفقه الإسلامي .الطبعة الثالثة .دمشق, سورية: دار الفكر.

-السّبت، خالد بن عثمان .2008 .قواعد التّفسير .الطبعة الثانية .القاهرة, مصر: دار ابن عفّان.

-سعداوي, د. نظير حسان .1962 .المؤرّخون المعاصرون لصلاح الدّين الأيّوبي .القاهرة: مكتبة النّهضة المصريّة.

- الشافعي, أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس1400 .هـ .المسند .بيروت, لبنان: دار الكتب العلمية.

- شاكر، محمود .2000 .التاريخ الإسلامي، الطبعة السادسة. بيروت، لبنان: المكتب الإسلامي

-الشامي، الدكتور أحمد .1991 .صلاح الدين والصليبيّون .الطبعة الأولى، القاهرة، مصر: مكتبة النهضة العربيّة.

-شاندور, ألبير .1993 .صلاح الدّين البطل الأنقى في الإسلام .الطبعة الثانية .ترجمة: سعيد أبو الحسن .دمشق, سورية: طلاسدار.

- الشربيني, شمس الدين محمد بن محمد الخطيب .1994 .مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج .الطبعة الأولى .تحقيق: علي محمد معوض و عادل أحمد عبد الموجود .بيروت, لبنان: دار الكتب العلمية.

-الشوكاني, محمد بن علي بن محمد بن عبد الله1414 .هـ .فتح القدير .الطبعة الأولى .دمشق، بيروت, سورية، لبنان: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب.

- الشوكاني, محمد بن علي1427 .هـ .نيل الأوطار من أسرار منتقى الأخبار .الطبعة الأولى .تحقيق: محمد صبحي بن حسن حلاق .الرياض, السعودية: دار ابن الجوزي.

- الصّلابي, د. علي محمّد .2008 .صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدّولة الفاطميّة وتحرير بيت القدس .الطبعة الأولى .بيروت, لبنان: دار المعرفة.

- الصنعاني, أبو بكر عبد الرزاق بن همام .2013 .المصنف .الطبعة الثانية .تحقيق: مركز البحوث وتقنية المعلومات .القاهرة, مصر: دار التأصيل.

-الصوري, وليم .1998 .الحروب الصليبيّة .ترجمة: د. حسن حبشي .القاهرة: مؤسسة الأمراء.

- الصّوري،, وليم .n.d .ذيل وليم الصّوري .ترجمة: د. حسن حبشي .القاهرة, مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

-الطبراني, أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب .2006 .المعجم الكبير .الطبعة الأولى .تحقيق: سعد بن عبد الله الحميد و خالد عبد الرحمن الجريسي.

-الطبري, أبو جعفر محمد بن جرير .1967 .تاريخ الرسل والملوك .الطبعة الثانية .تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم .القاهرة, مصر: دار المعارف.

- الطبري, أبو جعفر محمد بن جرير .2001. جامع البيان عن تأويل آي القرآن .الطبعة الأولى .تحقيق: د عبد الله بن عبد المحسن التركي .القاهرة, مصر: دار هجر.

- عبدالرحيم, د. رائد" .2019 .الفقيه عيسى الهكاري: حياته ودوره في عهدي أسد الدين شيركوه وصلاح الدين ".إربد للبحوث والدراسات والدراسات الإنسانيّة)جامعة إربد الأهلية - عمادة البحث العلمي.2024 ,5 19 .Accessed .(1) 21 (
https://staff.najah.edu/media/published_research/2020/11/11/%D8%A8%D8%AD%D8%AB_%D8%A7%D9%84%D9%81%D9%82%D9%8A%D9%87_%D8%B9%D9%8A%D8%B3%D9%89_%D8%A7%D9%84%D9%87%D9%83%D8%A7%D8%B1%D9%8A-_%D9%85%D9%86%D8%B4%D9%88%D8%B1_%D8%AC%D8%A7%D9%85%D8%B9%D8%A9_%D8%A5%D.

-عجيل، رنا حامد .2023 .استرداد القدس على يد صلاح الدين الأيوبي (385هـ/ 8881م) في الرؤية االستشراقية الإنكليزية . مجلـــة دراسات في التاريخ والآثار .العدد (88) .بغداد، العراق: جامعة بغداد – كلية الآداب.

- العسقلاني, أحمد بن علي بن حجر1390 .هـ .فتح الباري بشرح صحيح البخاري .الطبعة الأولى .القاهرة, مصر: المكتبة السلفية.

- علوان, د. عبد الله ناصح .1983 .صلاح الدّين الأيّوبي بطل حطّين ومحرّر القدس من الصّليبيّين .الطبعة الخامسة .القاهرة, مصر: دار السلام.

- العمادي،, أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفى .n.d .إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم .بيروت, لبنان: دار إحياء التراث العربي.

- عمارة, د. محمد .2005 .احترام المقدّسات .الطبعة الأولى .القاهرة, مصر: مكتبة الشروق الدولية.

- العناني, إبراهيم محمد" .2012 .قيم الإسلام وأخلاقيات الحرب والسلم ".التفاهم (وزارة الأوقاف والشؤون الدينية) السنة العاشرة .37-11 :(37) https://tafahom.mara.gov.om/storage/al-tafahom/ar/2012/037/pdf/02.pdf.

- العوا, د. محمد سليم .2006 .في النّظام السّياسي للدّولة الإسلاميّة .الطبعة الثانية .القاهرة, مصر: دار الشروق.

- عزام، عبد الرحمن .2013 .صلاح الدين وإعادة إحياء المذهب السني .الطبعة الثانية .ترجمة: قاسم عبده قاسم .الدوحة، قطر: دار بلومزبري.

- الفهداوي, د. ستار عبد عودة .2012 .حماية المدنيّين وقت الحرب في الشّريعة الإسلاميّة والقانون الدّولي العامّ .الطبعة الأولى .بغداد, العراق: ديوان الوقف السني.

- الفياض, زيد عبد العزيز1437 .هـ .قاهر الصليبيّين صلاح الدين .الطبعة الثانية .الرياض, السعودية: دار الآلوكة.
- القاسمي, محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم1418 .هـ .محاسن التّأويل .الطبعة الأولى .تحقيق: محمد باسل عيون السود .بيروت, لبنان: دار الكتب العلمية.
-قەفتان، سالّح .2005. مێژووی گەلی کوردو نەتەوەی کورد توکمان نییە. چاپی سێیەم. هەولێر، هەرێمی کوردستان، عێراق: ئۆفیشتی شڤان.
- القرطبي, أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري .1964 .الجامع لأحكام القرآن .الطبعة الثانية .تحقيق: أحمد البردوني و إبراهيم أطفيش .القاهرة, مصر: دار الكتب المصريّة.
- قلعجي، قدري .1992 .صلاح الدين الأيوبي: قصّة الصراع بين الشرق والغرب خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد .الطبعة الأولى .لبنان، بيروت: شركة المطبوعات.
- كاهن, كلود .1995 .الشرق والغرب زمن الحروب الصّليبيّة .الطبعة الأولى .ترجمة: أحمد الشّيخ .القاهرة, مصر: دار التنوير.
- گوانی, د. جەعفەر نەجمەدین .2015 .دیلگرتن .چاپی یەکەم .هەولێر, هەرێمی کوردستانی عێراق: یەکێتی زانایان.
- لاندو, روم .1977 .الإسلام والعرب .الطبعة الثانية .ترجمة: منير البعلبكي .بيروت, لبنان: دار العلم للملايين.
- لوبون, غوستاف .2012 .حضارة العرب .ترجمة: عادل زعيتر .القاهرة, مصر: مؤسسة هنداوي.
- ماجد، د. عبد المنعم .1987 .صلاح الدّين الأيّوبي .مصر، القاهرة: مطابع الهيئة المصريّة العامّة للكتاب.
- محمود، د. أحمد عبد لعزيز .2010 .إجحاف بحقّ المجاهد صلاح الدّين الأيوّبي رجل عصره .أربيل، إقليم كوردستان، العراق: مكتبة التفسير.
-مسلم, أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري .1955 .الجامع الصحيح .تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي .بيروت, لبنان: دار إحياء التراث العربي.
- مشعل, فاضل" .2007 .مسيحيو العراق... هجرة ومعاناة ".قناة الجزيرة .تحقيق: فاضل مشعل .شبكة الجزيرة الاعلامية.2024 ,5 18 .Accessed 27. 4 https://www.aljazeera.net/news/2007/4/27/%D9%85%D8%B3%D9%8A%D8%AD%D9%8A%D9%88-%D8%A7%D9%84%D8%B9%D8%B1%D8%A7%D9%82-%D9%87%D8%AC%D8%B1%D8%A9-%D9%88%D9%85%D8%B9%D8%A7%D9%86%D8%A7%D8%A9.
- مصطفى, شاكر .2014 .صلاح الدين الفارس المجاهد والملك الزاهد المفترى عليه .الطبعة الثالثة .دمشق, سورية: دار القلم.
- المعافري, أبو محمد جمال الدين عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري .1955 .السيرة النبوية .الطبعة الثانية .تحقيق: مصطفى السقا, إبراهيم الأبياري و عبد الحفيظ الشلبي .القاهرة, مصر: مصطفى البابي الحلبي وأولاده.
- ميتز, آدم .2008 .الحضارة الإسلاميّة في القرن الرّابع الهجري .الطبعة الخامسة .ترجمة: محمد عبد الهادي أبو ريدة و مصطفى لبيب عبد الغني .القاهرة, مصر: المركز القومي للترجمة.
- النعمة, إبراهيم .2020 .صور من سماحة الإسلام مع غير المسلمين .الطبعة الأولى .أربيل, إقليم كوردستان العراق: التفسير.
- النّووي, أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف1392 .هـ .المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج .الطبعة الثانية .بيروت, لبنان: دار إحياء التراث العربي.
- هلال،, د. عبد الغفار حامد محمّد .n.d .زهرة التّفاسير .القاهرة, مصر: دار الفكر العربي.
- الهندي, علاء الدين علي بن حسام الدين ابن قاضي خان القادري الشاذلي .1981 .كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال .الطبعة الخامسة .تحقيق: بكري حياني و صفوة السقا .بيروت, لبنان: مؤسسة الرسالة.
- هونكه, زيغريد .1996 .الله ليس كذلك .الطبعة الثانية .ترجمة: د. غريب محمد غريب .القاهرة, مصر: دار الشروق.
- هويتكروفت, أندرو .2013 .الكفّار تاريخ الصّراع بين عالم المسيحيّة وعالم الإسلام .الطبعة الأولى .ترجمة: قاسم عبده قاسم .القاهرة, مصر: المركز القومي للترجمة.
- هيكل, د. محمد خير .1996 .الجهاد والقتال في السّياسة الشّرعيّة .الطبعة الثانية .بيروت, لبنان: دار البيارق - دار ابن حزم.
- الواقدي, أبو عبد الله حمد بن عمر بن واقد المدني .1989 .المغازي .الطبعة الثالثة .تحقيق: مارسدن جونس .بيروت, لبنان: دار الأعلمي.
- Demirhan, Amed. 2018. "Kurdish inspiration of Jews, Christians, Muslims, and Renaissance and Enlightenment thinkers in tolerance and coexistence: The Sultan Saladin." KURDISTAN24. 10 1. Accessed 5 18, 2024. https://www.kurdistan24.net/en/story/17556-Kurdish-inspiration-of-Jews,-Christians,-Muslims,-and-Renaissance-and-Enlightenment-thinkers-in-tolerance-and-coexistence:-The-Sultan-Saladin.
- Nordland, Rod. 2017. "Captured ISIS Fighters' Refrain: 'I Was Only a Cook'." THE NEW YORK TIMES. 10 1. Accessed 5 18, 2024. https://www.nytimes.com/2017/10/01/world/middleeast/iraq-islamic-state-kurdistan.html.
Reuters. 2010. "الامم المتحدة: مسيحيو العراق يفرون الى المناطق الكردية أو للخارج" .رويترز .12 17. Accessed 5 18, 2024. https://www.reuters.com/article/oegtp-iraq-chritians-as7-idARACAE6BG0NR20101217/.
- Salih, Mohammed A. 2014. "Iraq's Christians seek refuge with Kurds." ALJAZEERA. 6 26. Accessed 5 18, 2024. https://www.aljazeera.com/news/2014/6/26/iraqs-christians-seek-refuge-with-kurds.

مامەڵەکردنی سەلاحەدینی ئەیوبی لەگەڵ ناموسڵمانان لە ڕوانگەی ئیسلامەوە

جەعفەر نەجمەدین عەلی

بەشی پەروەردەی ئایینی،کۆلێژی زانستە ئیسلامییەکان، زانکۆی

سەڵاحەدین-هەولێر،هەولێر،هەرێمی کوردستان،عێراق

Jaafar.ali@su.edu.com

پوختە

ئەم توێژینەوەیە باس لە ئەخلاقی مرۆیی سەلاحەدین ئەیوبی و مامەڵەکردنی لەگەڵ ناموسڵمانەکان دەکات، کە لەلایەن نووسەران و مێژوونووسانی ڕۆژهەڵاتو ڕۆژئاواوە ستایشکراون، توێژینەوەکە لە ڕوانگەی ئیسلامییەوە سەیری ئەم ئەخلاقە دەکات، بەوەی ئایا ئەخلاقی کەسی بووەو سەڵاحەدین پێڕەوی کردووە، یان ئەوە ئەخلاقی مسوڵمانانەیەوەو لە ئیسلامەوە سەرچاوەی گرتووە، ئامانجیش ئەوەیە کە ئەم ڕەفتارە لە کەسێکی دیاریکراودا قەتیس نەمێنێتەوە، وەک ئەوەی کەسی تر نەتوانێت هەمان شت پێڕەو بکات. توێژینەوەکە سەرباری پێشەکیو دەرەنجامو لیستی سەرچاوەکان و ڕاسپاردەکان، لە سێ بەشی سەرەکی پێکدێت، بەشی یەکەم کورتەناساندنێکە دەربارەی سەلاحەدین، کە ڕوونکردنەوە دەدات دەربارەی (خێزانەکەیی و لەدایکبوون، ئەو قۆناغانەی لە ژیانی خۆیدا پێیدا تێپەڕیوە، بەشێکی ئەو چاکسازییانەی کە کردوویەتی، هەروەها ئەوەی لەبارەیەوە گوتراوە). لە بەشی دووەمدا دیارترین لایەنەکانی مامەڵەی سەلاحەدین لەگەڵ غەیرە موسڵمانان نیشان دەدا، لەوانەش ڕوونکردنەوەی (هۆکاری شەڕەکان، ئازادی ئایین، مامەڵەکردن لەگەڵ دیلەکان، دانوستان و ئاشتەوایی، ئەخلاقی شەڕ، بەتایبەت ئەخلاقی کەسی سەلاحەدین). بەشی سێیەم و کۆتایی تیشک دەخاتە سەر هەڵسەنگاندنی مامەڵەی سەلاحەدین لە ڕوانگەی ئیسلامەوە، وەك: (ئازادی ئایین لە ئیسلامدا، دانوستان و ئاشتەوایی لە ئیسلامدا، ئەخلاقی شەڕ لە ئیسلامدا، پەیوەندی ئەخلاقی سەلاحەدین بە ئیسلامەوە). مەبەست لەم لێکۆڵینەوەیە پەروەردەکردنی ڕۆڵەکان و نەوەکانی داهاتووە بە پەروەردەیەکی دروست، کە مرۆڤێکی هاوسەنگ بەرهەم بهێنێت، مرۆڤێك چاکەی خۆش بوێت و بەرامبەر ئەوانی دیکە لێبوردە بێت، قوربانیدەر بێت. هەروەها ئامانجی سەرەکی ئەوەیە، کە هەوڵبدرێت ئاشتی، بە مانا هەمەلایەنەکەی، جێگەی دڵەڕاوکێ، شەڕ، فریودان، کوشتن، ڕق و دزی، بگرێتەوە.

وشە سەرەکییەکان: سەڵاحەدینی ئەیوبی، لێبووردەیی، مرۆڤایەتی، پێکەوەژیان، ڕەوشتبەرزی.

Saladin Al-Ayyubi Dealings with Non-Muslims in the Perspective of Islam

Jaafar Najmadin Ali

Department of Religious Education

College of Islamic Sciences,

Salahaddin University-Erbil, Erbil, Kurdistan Region, Iraq

jaafar.ali@su.edu.krd

Abstract

This research deals with the human morals of Saladin al-Ayyubi and his dealings with non-Muslims, which were praised by writers and historians from the East and West. It looks at this morality from an Islamic perspective. Is it personal morality of Saladin or is it Islamic ethics?. The researches target is for this behavior not to remain confined to a specific person, as if no one else can be characterized by it. In addition to an introduction, a conclusion, a list of sources, and recommendations, the research consists of three sections. The first section is a brief introduction about Saladin, including a explain (his family and birth, the stages he went through in his life, the reforms he had made, and what was said about him). The second section showed the most prominent aspects of Saladin's dealings with non-Muslims, including an explanation of (the causes of wars, freedom of religiosity, dealing with prisoners, negotiations and reconciliation, the ethics of war, and Saladin's personal ethics). The third and final section focused on Saladin's dealings in the perspective of Islam (freedom of religiosity in Islam, negotiations and reconciliation in Islam, the ethics of war in Islam, and the relationship between Saladin's ethics and Islam). The purpose of this research is to raise Children, youth and future generations with a correct upbringing that produces a balanced person who loves goodness, is tolerant of others, and is sacrificial. So that peace, in its comprehensive sense, can replace anxiety, war, deception, murder, hatred and theft.

Keyword: Saladin, tolerance, humanity, coexistence, morality.